

طاهر الزهراني

نحو الجنوب

رواية

طوى
للنشر والإعلام

طاهر الزهراني

نحو الجنوب

رواية



Book: Naho Aljanob
الكتاب : نحو الجنوب
Novel رواية
Author: Taher Al-zahrani
المؤلف: طاهر الزهراني
First Edition: 2010
الطبعة الأولى ٢٠١٠



طوى للثقافة والنشر والإعلام ـ لندن
TUWA MEDIA & PUBLISHING LIMITED
19 TANFIELD AVENUE, LONDON, NW2, UNITED KINGDOM
Email: tuwa@london.com
Tel : 00966505481425 - 009662108111
التوزيع : منشورات الجمل
تلفون وفاكس: ٦٦٨١١٨ ١ ٠٠٩٦١،
ص.ب: ١١٣/٥٤٣٨ ـ بيروت ـ لبنان
E-Mail: KAlmaaly@aol.com

إلى

أخي الأكبر محمد . .

الذي رحل إلى السماء مبكراً جداً . .

لكي تأخذ حقاً لك لابدّ من ضجيج !

مالكلوم إكس

١

المدخل دائماً لأي عمل أكتبه يمثل لي هماً بطول سور برلين وحاجزاً لكلماتي كجدارٍ عازل يجعل الأفكار من خلفه متصارعة كدبابير مزعجة، الأفكار كثيراً ما نعتقد أنها بعيدة عنا ولكنها في الحقيقة تسكننا وفي نفس الوقت نلهث دوماً لكي نصطادها في دواخلنا!

....

كنت متردداً في أن أكتب بهذه الصورة ولكن بداخلي منادٍ يقول:

- أكتب يا كلب وانبح بقبح!!

....

كنت بسيطاً جداً قبل ذهابي الى الجنوب ولكن بعد العودة يبدو أن القراءة أثرت عليّ كثيراً - إيجاباً وليس سلباً كما تروّج السلطات دائماً!-

حب الكتب علّمني التفكير والثورة، أحب كتب السيرة المثيرة والملاحم الفكرية الخطيرة والروايات ذات الأفكار المجنونة، علمتني الكتب العزلة ثم الخروج عن القانون وحتى تتقن الخروج لابد أن تخرج عن قوانين القبيلة أولاً، ثم الخروج عن أمور أخرى تحلو لك!!

منزلي هو الشيء الذي لا أحب أن أخرج منه كثيراً، أقضي وقتي بين قراءة واطلاع وتفكير وإذا سئمت أشاهد بعض الأفلام.

بعد رجوعي الى جدة، لم أجد جامعة تقبلني لذا ذهبت إلى أحد المشايخ (الشناقطة)، أقرأ عليه متناً في المنطق وآخر في البلاغة، وفي الليل سهرٌ ومقاهٍ وجمع مبارك من أصدقاء الغفلة كما تسميهم أمي!!

في ساعات الليل الأخيرة لا أجد مَنْ أتحرش بها إلا (جدة) ومصيبتي أني لا أتحرش إلا بسوءاتها الظاهرة والباطنة، أما مواطن الجمال فبعيدة عني بُعد الراعي عن الرعية!

....

نومي الطويل بالنهار لا يقطعه إلا جلبة أمي لتوقظني للصلاة أو لتدفعني للبحث عن وظيفة.

- قوم يا ولدي دوّرلك على شغله النوم ما نفع الكلاب، شوف الكل إما يدرس أو يشتغل.
- ....
- قوم شوف (جمعان) ولد عمك لقى شغله في الشرطة وانت ذبحك السداح.
- يافتاح ياعليم يا أمي الله يرحم والديك لا تجيبي ليا سيرة الشرطة مع الصباح.
- نسوان (النزله) ما عندهم كلام إلا عني وعن ولدي العاطل اللي ينام في النهار ويسهر كل ليلة مع العبيد!!
- والله يمه العبيد أشكال جمعان وطقته اللي هدف الواحد فيهم أنه يكتب عسكري ويشتري كامري تقسيط!!
- هذا اللي فالح فيه الحش في خلق الله وأنت أفشل خلق الله.

- وأنا قلت غير كذا يمه
- قوم يا ولدي الله يخليك
- طيب...طيب
- قوم
- طيب..

٢

أعشق السباحة في المنطقة الرمادية!

المنتشر عند عامة الناس دائماً أن هناك خيارين دائماً لابد أن تختار أحدهما إما الأبيض وإما الأسود، ليس هناك دعوة للوسط كل الدعوات هنا تدعو للتطرف!

خالي سعيد دائماً يضحك من قصتي الغريبة ولحيتي الطويلة ويقول:

- إما تحلق رأسك أو لحيتك.
- طيب شكلي ذا مو عاجبك؟
- يعجبني وخاصة لم تشفط (زقاره)
- ايوه لمن أشفطها واطفيها في (فكحتك)!!

(يقهقه الجميع)

بالنسبة لوالدي فلي معه تصالح مفتوح فهو مقتنع بما أفعل يعجبه اطلاعي وتناقضي، ولم يذكر لي يوماً أموراً لها علاقة بالمستقبل والوظيفة، ويكتفي أن يراني أذهب الى الشيخ «الخضر» لكي أدرس عنده ويعجبه أن يراني أقرأ بشغف فأبي هو من علمني حب القراءة والاطلاع ويرى أنها أفضل حصيلة من الجامعة ومؤمن دائماً أن

الأرزاق بيد الله، أنا وأبي دائماً نثير النقاش على سفرة الطعام، السياسة وحروب المنطقة ونظرية الارتقاء والنسبية وثورة سعد زغلول وعلم النباتات ودائماً ما نقضي بعض الليالي في المساجلات الشعرية وكثيراً ما تنظر أمي إلى أبي شزراً وتقول:

- أنت اللي خربت الولد!

الشيء الوحيد الذي لا أتفق مع أبي فيه هو اهتمامه الشديد وتضلّعه بالأنساب والقبائل وأخيراً المواقع العشائرية في الـ«نت»، ودائما ما تفتح هذه الأشياء في المجالس والمناسبات العامة، وهذا العلم يضايقني كثيراً ماذا يعني أن تكون من قبيلة كذا أو قبيلة كذا، من الأشراف أو من الأنذال، طالما أن أبا لهب القرشي في الجحيم وبلال الحبشي في جنة النعيم!!

أبي شعر بالهزيمة عندما عرف أني لم أقع في فخ (الأدلجة) القبلية التي كان يجزم بأني سوف أعتنقها بعد رجوعي من الجنوب، كل ذلك الجهد منه (ذهب مع الريح)!

٣

نحن دائماً في الجنوب رغم ما نعيشه من انطلاق في حياتنا، إلا أننا نكتشف بعد نضج غير كافٍ أننا نرزح في قيود الجاهلية وظلام التقاليد العمياء التي لازالت حية في جسد القبيلة، متى اكتشفت ذلك؟ اكتشفته بعد أن كفرت ببعض قوانينها ولم أدفع بعض مكوسها!!

لاشك أن حبي لقبيلتي وديرتي لا يتزعزع، وأنا أفتخر بذلك وأفتخر أيضاً بتاريخ يملأ الدنيا شرفاً.

نعم أرقص (العرضه والهرموج والمسحباني) وأردد طرق الجبل في خلواتي، وأسعد عندما نصف لرمي (الحراج) ببنادق البلجيك، وأردد نسبي في كل مجلس، وأرطن بلهجتي مع جدتي كل صباح، وأصعد الجبال، وأحرث الأرض، وأرعى الغنم، وأسبح في الغدران وأسخر من مؤخرات الراعيات السمراوات اللاتي لفحتهن شمس تهامة فكستهن سمرة نادرة!!

علّمني الجنوب أن أرحب بالضيف حتى تضيق به الدنيا بما رحبت وأذبح له الخراف وأسلخها وأنا عارٍ (رب كما خلقتني) وأطبخ له الطعام وأمزع له اللحم بيدي وأعصر له شموع العسل اليابس في الصيف وأهبه سطول السمن البقري و. . .

ولكن أن تفرض عليّ القبيلة قيوداً تربطني بمن تشاء وتمنعني عمن تشاء وتعزّ من تشاء وتذلّ من تشاء بيدها وحدها الخير فهذا الذي لا أرضاه ولا أؤمن به بتاتاً، حتى وإن كان اسمي يحمل اسم القبيلة!!

اسمي زهران وكفى!

٤

لماذا لا أحب القبيلة رغم أني أفتخر بانتمائي لها؟!
سوف أسرد عليكم القصة من أولها.
حدث شغب ذات ليلة بـ(إستاد) جدة الرياضي بين جمهور الاتحاد وجمهور الأهلي استطاعت الحكومة أن تسيطر على الوضع وفي اليوم التالي بدأت تبحث عن بذور الشر الذين أوقدوا نار الفتنة!
في تمام الساعة الحادية عشرة والنصف (الجلاوزة) كانوا يطرقون باب المنزل ويقودونني الى (الدورية)!
الضابط (حمزة فلمبان) يمسك بشعري من الخلف ويقول:
- مسوي فيها إتحادي صميم هاه أوريك يا كلب أوريك أنت والتكارين اللي معاك...
أخي (عيد) المصاب بـ (متلازمة داون) يرميهم بالأحذية ويلعن سابع جد فيهم، وأمي بجلبابها تحاول ردعه!
الضابط ينظر إلى (عيد):
- زهراني ومتخلف كمان؟!
فأجبته برفسة بين فخذيه، ألجمت لسانه وأنفاسه، ثم أحاطت بي ركلات ولكمات من كل جانب، وأمي تصيح:
- ولديه باح... ولديه باح

ركبتُ (جيب) الشرطة وإذا بي وسط تجمهر هائل من قبل أهل الحارة ثم - آآآه من ثم هذه - رأيت في باب الفيلا المقابلة لمنزلنا والتي سكنها أناس جدد بعد أن تركها العم حكمت السوري وسافر بأهله إلى دمشق، رأيت باب تلك الفيلا يفتح وإذا بأنثى بديعة الجمال تطل من خلف الباب واضعة يدها اليسرى على ثغرها من الدهشة!

هنا الحد الفاصل بين الجحيم والنعيم، هنا الثورة والملحمة والأسطورة!!

الموقف سارت حركاته وضوضاؤه ببطء عند هذا المشهد، ثم تحرك جيب الشرطة ثم تعاقبت الأحداث سريعاً كأنه مشهدٌ سينمائيٌّ مثير!!

٥

ظلام (التوقيف) وضيقه ورائحة البشر، كل ذلك يتلاشى عندما أتذكر ذلك الوجه المذهول الجميل خلف الباب!

فقط ثلاث ليالٍ في التوقيف ولكن كان لها أثر في حياتي، يكفي أنها قتلت كابوس الخوف من كل شيء!

المكوث في الزنزانة يعلّم الإنسان التصادق مع ذاته وتعرّفه تفاصيل الروح.

عرفت هناك معنى أن تجوس بين أربعة جدران وأن تخترع البدائل، كيف تجعل من حبات الأرز مادة لاصقة!

أن تجفف أوراق الشاي وتصنع منها سجائر بعد أن تلفّها في ورق جريدة!

أن تجعل من قصدير الجبنة المثلث قلماً تخربش به على الجداران!

ناصر قارورة وجدته هناك، رائحة العرق تنبعث منه بقرف يسب ويلعن:

- ياجاوه يا كلب نزلني من هنا، على قطرة عرق تحبسني مو انتم كل نهاية أسبوع تسكرون في الكباين، وحرمتك ترقص قدام الناس يا ديوث..

- يا ناصر اهجد الله يرحم والديك والله ح يكتب فيك..
- يا ناس هذا الخنزير دوبه أخذ أبوه الجنسية وقاعد ينفش ريشه...

....

على كل حال لم يتنازل حمزة فلمبان إلا بحفنة من نقود!

خرجت في اليوم الرابع أخذت تاكسي الى البيت، نزلت كنت أنظر إلى منزلها علّها تظهر مرة أخرى، طرقت الباب فتحت أختي جميلة وعندما رأتني أخذت تطلق الزغاريد كطيور الحب!

- وحشتيني يا جميلة..
- انت مووت... بس روح تروش يا معفن!!

الشهور التي تلت هذه الحادثة كانت محاولة لغزو الجميلة!!

٦

يوم العيد هو اليوم المناسب لاختراق حمى ذلك المنزل الذي تسكنه الجميلة، والوحش الذي بداخلي يعيث فساداً لكي يجبرني على الدخول!!

ماذا سأجد في الداخل... مكتبه ضخمة، أباريق وفناجين تسخر؟!

ماذا يقبع خلف تلك الجدران؟

أي عالم تعيشه الجميلة بالداخل؟

المنزل الضخم والسيارات الفارهة التي بالخارج أدلة على حياة مكتظة بالداخل!!

أمي صنعت (عيدها) من قبل الفجر، رائحة اللبن المخمور مع الريحان يعج في البيت من قبل أيام، عاونتها في سكب العيد في الصحفة المطلية بالقار، انتظرت أمي قليلاً حتى تكونت قشرة سميكة ثم غرست إناء عسل ممزوج بالسمن وكأنها مائدة نزلت من السماء!!

....

بعد صلاة العيد كنت أنتظر الأقارب والجيران وأحرس المائدة من عبث الصبية، ثم أخذ الدور أخي الأصغر، ذهبت إلى المرآة أصلحت هندامي وأخذت نفساً عميقاً، ثم رششت عطري المفضل

وقصدت قصر الجميلة، كان شذى عطري ينشر على الطرق وروداً حمراء وقلوباً بأجنحة وابتسامات من نور، حثث الخطو قبل أن تموت مخلوقات عطري!!

وقفت أمام الباب، أخذت نفساً عميقاً ثم همزت الـ (انتر فون) فُتح الباب ولكن لم يتكلم أحد، همزته مرة أخرى ثم سمعت صوتها ينسكب من سماعة الجهاز.

- تفضل الصالون مفتوح

ثم لاحظت أن الـ (انتر فون) به عدسة!!

بالداخل حديقة جميلة وأمامي باب من خشب السنديان العتيق مزخرفٌ بالغرائب وعلى جانبيه شجرتا فل تصخب المكان بالرائحة!

من الباب كان البخور (الجاوي) يخرج بثقل، له أذرع كالأخطبوط لا يترك شيئاً إلا غمره بأريجه!!

دخلت الصالون وغاصت قدماي في السجاد الفاخر، جلست على الكنب ذي الأذرع الخشبية المشغولة بإتقان، كان المجلس يعج باللوحات والتحف والنجفات الضخمة، على الجدار لوحة تحاكي لوحة (ذات الرداء الوردي) ولوحة أخرى لبيوتات جدة القديمة رسمت الرواشين شكل متقن جداً، قلبي يخفق ولم يأت أحد!

فجأة سمعت صليل صحون وقرقعة فناجين قادمة!!

- يا إلهي.. هل يعقل أن تتكرر الخرافة من جديد!

توقعت أن يدخل الإبريق ويثرثر معي أولاً ثم تأتي الفناجين الشقية وتحوم حولي..

ولكن هذا كله تلاشى بدخول خادمة آسيوية تحمل صينية مملوءة بكل شيء، شوكلاتة، معجنات، مكسرات ثم أتت صينية أخرى عليها إبريق شاي أخرس!!

جاءني شعور بعدم وجود رجل بالمنزل فأخذت نفسي وقبل أن أخرج أخذت قطعة شوكلاتة ووضعتها في جيبي.

عند الباب أعطتني الخادمة بطاقة صغيرة، فتحتُها وكانت مخطوطة بخط جميل تقول:

«كل عام وأنتم بخير... .آسفة أنا والوالدة فقط في المنزل!

إخوتي خارج المملكة...

نحن سعيدون بتواصلك لأنك الجار الوحيد الذي قام بمعايدتنا.

اعذرنا إذا قصرنا في ضيافتك!»

....

قبل أن أغادر رأيتها في النافذة ثم توارت بالستارة وأنا تواريت بالحب!

٧

بدأت أتصرف بصبيانية، العِرق الجنوبي يفضحني، تصرفاتي تغيرت، (الشلة) أصبحت أغيب عنها ليالي عدة، (الوجيه) أتى أكثر من مرة يطمئن، أعلم أني كنت مكشوفاً، لأن تصرفاتي لوحة إعلانية تفضحني على الملأ!

مرضعتي طليعة وحدها من أخبرتها بما يجري بداخلي.

- طيب يا ولدي أنت فين وهي فين؟
- يا أمي والله مو بيدي
- انت أول امشي تمام في دراستك. . يا خايب تعيد السنة بسنتين أولى ثانوي بس ثلاث سنوات والبنت ما شاء الرحمن هذا أول ترم لها في الجامعة، أللي مجنني الكتب المتلتله دي في غرفتك وانت دا حالك!
- . . . . . .
- يا زهران يا حبيبي دي مو من ثوبك. .
- يمه. .
- أبوك مستحيل يرضى
- حتى انت. . ما تحسي فيه
- أحس بس أبوك زهراني متعصب مرررره

- سهم المحبة كواني كي ... واللي كواني بينكم حاضر
جيبو الكفن وادفنوني حي ... ماعاد لي في الهوى خاطر
- سايس كلامك وادخله بقياس ... من قبل ما تدخله سوسه
احذر تكلم وعندك ناس ... خلي معانيك مدسوسه
- قولي منحوسه!

....

خلال أشهر عدة تطورت العلاقة بشكل مدهش غير متوقع! هي عالم آخر، بل عوالم أخر..

عندما كنت أراها تتسع الحياة بعد أن كانت تضرب عليّ خناقاً مهلكاً، كانت هواء نقياً في زمن التلوث، تراني عابساً فتبتسم وضعيفاً فتهوي إلي، أراها في كل يوم طيفاً آخر، عندما تستيقظ من النوم تأسرني بشعرها المبعثر والفم المغلق الذي لا يبتسم إلا أواخر الضحى، أخبرتها في آخر لقاء أن أبي يحاول إقناعي للذهاب لإكمال الدراسة في القرية، لأن الوضع فيها أيسر وأهون.

هي أيدت اقتراح أبي رغم حزنها، قالت:

- لابد تسمع كلام أبوك يا زهران، الدراسة شيء مهم لابد منه، ومالك قيمة بين الناس إلا بالشهادة!!
- خايف أحس أبويه مدبر شي!
- هو أبوك على كل حال
- محتار
- روح يا زهران أنا انتظرك.. صدقني

٨

أبي لم يجد مبرراً في إقناعي للذهاب إلى القرية إلا الدراسة، تجاوز مرحلة أولى ثانوي بالتحديد، وفي نفس الوقت أكون قريباً من جدي وأتربى على قناعات معينة، القضية (غسيل مخ)!

هذا القرار عقده في نفسه عندما لاحظ اعوجاج لساني باللهجة الحجازية وأصبح عندي الثاء تاء والذال دالاً فأصبحت أنطق رقم اثنين (اتنين) ولفظ الإشارة هذا (هادا) بالتفخيم، ولاحظ بعض التشكي من حرارة الطريق وسياط الشمس ورطوبة الجو، وطلب شراء (دباب) عجلتين، ورأى نفسي تعاف (الخبزه) والسمن والعسل، وأتبرم من العادات والتقاليد، عندها علم أن المدنية سوف تمسخني من رجولتي وتنشئني (خلقاً آخر)، ثم أتت الطامة الكبرى وغير المتوقعة تماماً، أن أقع في حب فتاة ليست من القبيلة!!

عند هذا كله قرر أن أنزح إلى القرية!

إلى جدي الذي لا يزال يعيش هناك، كل هذا بحجة تجاوز عنق الزجاجة - أولى ثانوي - الله يلعن أولى ثانوي!!

نزع أبي ملفي الأخضر من مدرستي ونزعني من (النزلة) ثم

علمت وأنا مودعاً (النزلة) مودعاً معالمها، قصر الملك سعود المهجور، البرج، خزام، المكتبه العامة، مبنى التلفزيون، الاستخبارات، مقبرة شاهر.. علمت أن الأمر مدبر بلا شك!!

٩

هناك على (كوبري الشميسي) لافتة تشير أن طريق (غير المسلمين) إلى اليمين، ذاك الطريق كان طريقنا نحن أيضاً!

الوقوف في (قهوة الجبل) كالإحرام من الميقات تماماً، لابد للذاهب الى الجنوب أن يمر على ذاك المكان، يملأ السيارة بالوقود، ويتبضع من محلاته الشعبية، وإذا كان صاحب مزاج فإنه لا يتردد أبداً في المكوث ساعة بالقهوة لشرب الشاي والشيشة!

....

طريق الساحل المؤدي إلى الجنوب لا يشي أبداً بأن هناك فرقاً بين الفريقين، ليذهب السائرون فيه إلى الجحيم!

طريق الساحل ثعبانٌ طويل في كل شبر منه نابٌ سامٌ يتقرب!

طريق الساحل لعنة من لعنات الله على الأرض خطٌ واحدٌ يلتهم الناس بشبق!

طريق الساحل نعش أسود وعواصفه نائحة ثكلى تزعجنا دوماً، وجيب أبي (السوزوكي) يشق الطريق إلى وادٍ في تهامة أغبر ملعون!!

في هذا الطريق لابد أن تستفرغ (مرة أو مرتين) والسائرون فيه (لا يتوبون ولاهم يذكرون)!!

دماءٌ دافئة على الإسفلت، مخٌ متناثر، فروة شعرٍ مدعوسة،

امرأة ميتة شبه عارية ملطخة بالدماء لم تحلق سوءتها بعد، سيارة مهشمة تماماً ويد متدلية من نافذة السيارة، وأخرى مثلها غير أن بها وافداً قد تمزق واختلط بالحديد ولا زال مسجل شاحنته الصغيرة يصدح بأغنية جميلة غير مفهومة المعنى!!

طريق الساحل لا يشرب إلا الدماء، ولا يقتات إلا على الأشلاء ممزقة!

في الطريق انفجر أحد إطارات السيارة فنزلت حافياً وإذ بي واقفٌ في بقعة كبيرة من الدماء!!

غيّرنا الإطار ثم أكملنا المسيرة الدامية!

بيوت الصفيح منتشرة عبر الطريق، توقفنا عند مطعم متهالك، طلب أبي طعاماً لنا، بيت الصفيح أرضيته رمل أصفر وعليه (حنبل) ممزق وقوارير (كولا) فارغة، الخنافس السوداء تتجمع بطرق عشوائية!

بعد الغداء طلب أبي شاي (تلقيمه) و (شيشة)، وعندما تجشأ رأس أبي أكملنا المسير.

الطريق شمس حارقة ودماء سوداء يابسة وجمال سائبة وحمير تدور يوماً كاملاً ليخرج لترين من زيت السمسم، ورمال (صفراء فاقع لونها لا تسر الناظرين)!، سيارات من طرازٍ قديم على قارعة الطريق، رعاة جففتهم شمس الجنوب وهموم تحت خيام (الخباتيه)!!

....

انتهى الإسفلت، ليبدأ طريق وعر مكشر الأنياب، كريه المنظر، صخور حادة بارزة، أشواك (السَلَم) مبثوثة، وذئاب مبقورة معلقة في أشجار السدر!!

وصلنا بعد أن خيّم الليل، أبي يعرف أن جدي مستيقظ من رائحة (غليونه)!!

عندما رأى جدي الشنطة (السّحاري) يحملها أبي عرف كل شيء ولم يسأل!

بدأ أبي يسرد (العِلْم) على جدي، ولم أشعر بعد ذلك بشيء حتى لسعتني شمس الضحى فنحن في القرية لا تظهر شمسنا إلا ضحى بسبب الجبال.

في الصباح رحل أبي ولم يترك أثراً؟!!

١٠

بدأت أكتشف معالم المنزل الحجري الذي يسكنه جدي وحده بعد أن ماتت جدتي..

المنزل مكوّن من طابقين؛ الأول للماشية والثاني للسكنى وهو عبارة عن غرفة كبيرة مغلقة وساحة تطل على الوادي.

الغرفة مغلقة منذ أن ماتت جدتي، وجدي لا يحب أن ينام بالغرف مطلقاً، المصيبة أنه لا يوجد (حمّام) في المنزل ولا كهرباء، وبناءً عليه فلا يوجد بث تلفزيوني، (يعني أنسى)!!

الحمّام وجوده في المنزل عار كبير لا يغتفر، وعندما تذهب لقضاء حاجتك إياك أن تحمل معك ماء أو مناديل ورقية، في الخلاء لابد أن تحيى سنة الاستجمار بالحجارة فقط، وحجارتنا سودٌ حارة حادة مؤذية، الحجر لابد أن تستخدم جميع جهاته فمن الحماقة أن تدنس أكثر من حجرٍ بسبب دبرك العفن!!

كنت أود أن أتوقف هنا ولكن شعرت أن النهاية مخزية!!

.....

في قريتي البيوت متباعدة جداً عن بعضها، لكن في المساء تسمع مداعبة الأزواج لزوجاتهم بل أبشع من هذا!!

في ذلك الصباح تركني جدي وحيداً، وجدتي حليمة - عمة

والدي - في بيت حجري غريب على قمة جبل كأنه أحد قلاع الـ(دراكولا)، تسكن هناك ومعها أخي أحمد الذي لم أره من قبل، أخي أحمد فقد والدته وعمره سنتان ويكبرني بخمس سنين.

....

ذهبت أكتشف المنطقة حتى لسعتني الظهيرة، رجعت إلى بيت جدي ولم أجده وحتى ذلك الوقت لم أتناول شيئاً، ذهبت إلى بيت جدتي (حليمة) ولم أعرف الطريق إلى منزلها فقررت أن أصعد إليها من طريق وعرة، أشواك، حجار حادة، زجاج مهشم، وعلب صدئة!

وجدتها تغنّي لبقرتها وهي تحلب، سمعت جلبتي وسألتني فعرّفت بنفسي فتقدمت وقربت وجهها مني كثيراً وذلك لضعف بصرها ثم قالت:

- وانا فدى من جا

أخذت وجهي بين راحتيها الملطختين بالقطران والفحم وبدأت تقبّلني وأخذتني لجنبها وقبّلت رأسي أجلستني قريباً منها تحت العريش ثم نظرت إليّ مرة أخرى وقالت:

- وش معك يا فرخيه فيك حِيّه؟!

جلبت لي تمراً وبسكوت (مدّاح) ولبناً حامضاً جداً ثم سقتني من ماء ترشح من قربتها المعلقة وهو أفضله!!

في المساء رجعت إلى جدي ورأيته يُدخل الغنم الى (المدور) ولم يتكلم معي أبداً كل ما يفعله هو أن يدخن من غليونه ويستمع إلى الراديو فقط!!

في اليوم التالي عرفت أن يومي الأول في القرية ما كان إلا كرم ضيافة من جدي!!

١١

اليوم الأول كان جنة الأيام والأيام الأخرى جحيمها، في اليوم التالي وقبل أن يتنفس الصبح أيقظني جدي ركلاً!

طلب مني أن أغلق (الإتريك) وأتوضأ للصبح، (مروان) ينبح بصوت عالٍ، والصبح بدأ يسفر، اطفأت المصباح ثم رجعت إلى دفء اللحاف، فما كان منه إلا أن أخذ اللحاف ورمى به في (مدور) الغنم ومنذ ذلك اليوم حرّم عليّ أن أنام بعد الفجر، ثم بدأ جدي يتكلم ولا يتكلم إلا بالأوامر، افعل كذا، اعمل كذا.

وأول أمر تلاه عليّ: أن أذهب لرعي الغنم، وبيّن لي العقوبة إذا فقد أحدها، جدي جعل (مروان) القائد وأنا أكون معه كبهيمة مقودة!!

قبل أن نسير نظر جدي إلى حذائي ثم أمرني بنزعه وأخذه مني ثم نزع سكينة وأخذ يقطع الحذاء إلى قطع صغيرة وحرم عليّ لبس الحذاء بعد ذلك اليوم!!

بدأ القطيع في المسير، (مروان) في المقدمة يلتفت كل لحظة ليتأكد من اجتماعه وعدم فرقته، وأنا أسير من خلفه كشاة عمياء لا تدري الى أين يسار بها!

المشي حافياً هنا نوع من التعذيب يمارسه جدي المعتوه عليّ، أحذر الحجار الحادة فأقع في غصنٍ مليء بالأشواك، وأشواك تهامة شربت من دموع آدم عندما بكى ابنه فزادها الدمع قسوة وحِدّة!!

عملي اقتصر في ذلك اليوم على حمل صغار الماعز اذا تعبت أو ضاعت، ومن رحمة الله بي أني وجدت في جبلنا العظيم عُرشاً وسقائف جعلت للرعاة، تجد بها جالوناً من الماء وشاياً وسكراً و(براداً) أصفر محروقاً ذكرني بلون (العميد) وجماهير صخبة وشعارات عدة وأهازيج!!

بعد أن استقر بنا الحال في الجبل ورعينا الغنم جزءاً من النهار، وارتحنا قليلاً، نزلنا للغدران لنسقي الغنم وهناك سقطت عدة مرات بفعل الطحالب المنتشرة، الغدران في الصيف قليلة كدرة ومليئة ببراز القرود الخبيثة و(دغاليب) الضفادع وليس لنا ماء هنا إلا هي، شرب الغنم وأنا نزعت قميصي وضعته في الماء كالإناء لكي أصفيه من القاذورات وشربت!

رجعنا ولم يكون الرجوع أحمد، فقد مات بيدي جدي صغير، وأصبح رأسه يتدلى كـ (خصية) وأمه تنوح ثغاء يقطع أوتار الفؤاد..

ماذا أفعل في هذا الموقف الحرج؟

ساعة وأنا أفكر في مخرج من هذه الأزمة، قررت أخيراً أن أضعه في (المدور) من غير أن يعلم جدي ثم يكتشف في اليوم التالي أنه مات.

في المساء كان جدي ينتظر بقامة مفزعة وعظام ضخمة ولحية بيضاء وشارب كث وسمرة داكنة وجبين مقطب وعينين حادّتين ودخان متصاعد من غليونٍ قديم!

عندما وصلت قلت له وأنا أحمل الجدي:

- مات

لم يجب بكلمة!

في المساء شعرت بوعثاء الرعي والمسير، وبدأت في تسلية أخرى لم أعرفها في المدينة وهي نزع بقايا الشوك من قدمي بعض الشوك أشعر به ينخرني وبعضه غاب ولم يعد، بحثت عن لحافي فلم أجده وتذكرت أنه في الزريبة، نفضته نفضاً فليس هناك وقت لغسله، تلحفت، شعرت أن التعب ينزلق من أطرافي كما ينزلق الذئب الجائع إلى الوادي، بدأت أشعر بلذة نوم غريبة لم تكتمل!

فقد جذب جدي اللحاف بقوة وطردني من بيته الحجري الذي أصبح هو جزءاً منه، وأمرني بالنوم بالعراء بجوار (مروان)!

أخذت أجر اللحاف وأركل الأرض وأطلق تمتمات غاضبة، عندما اقتربت من (مروان) الذي افترش يديه لينام لم يكلف نفسه إلا أن رفع رأسه ليتأكد من القادم، ما إن رآني حتى رجع لسيرته الأولى!!

تذكرت آل بتشينو في فيلم (رائحة امرأة) عندما كان يصرخ ويقول: (أنا وحيد في الظلام... أنا وحيد في الظلام)

وأنا وحيد في الظلام في وسط شعب موحش وبجواري كلب غبي!

١٢

كانت لسعات الناموس لا تحصى على جسدي ولم يسلم وجهي أيضاً.

في اليوم التالي ذهبت للرعي وحدي، ذهبت هذه المرة دون (مروان) وكان القطيع يسير وحده دون الحاجة إليّ، في منتصف الطريق بدأت أفقد السيطرة على القطيع، واحدة انشقت عن القطيع ثم ثانية وثالثة، وأنا أركض ذات اليمين وذات اليسار ولم أصل إلى المرعى إلا بشق الأنفس!

لعنت (مروان) ولعنت الشياة العنيدة وعرفت قيمة ذلك الكلب النجس.

في المساء رجعت، استقبلني مروان بنباحه المزعج وعلى كتفي جديٌ وأنا ألهث!

شعرت بالعذاب وفكرت في الهرب، فالحياة بهذه الصورة لا تطاق أبداً، إذا كان (الحب في الحياة جحيم يطاق والحياة بلا حب نعيم لا يطاق) فأنا لا حياة ولا حب ومروان يعظ!!

- الله يلعنك يا مروان ويلعن من سلحك!!

رأى جدي معاناتي وشهد احتضار أظافري فقدت ظفرين وكسر

آخر وبعض الأشواك اخترق باطن قدمي وخرج من ظاهرها، وجدي يحشو غليونه غير مبالٍ!!

يا إلهي من يوقف هذه الكوميديا السوداء؟!!

شعر جدي بتكدّري فأرسل معي بعد ذلك مروان، ومروان رغم مشاكساته لي وضربي له أحياناً إلا أني اكتشفت فيه خصلة لم أجدها في غيره وهو أنه يكره اللوم، لو ركلته ورجمته بالحجارة وضربته بالعصا لا ينردع ولا يستجيب ولكن أن يوبخ فإنه يتكدر ويخفض رأسه وربما لا يأكل يوماً أو يومين!!

بعد أسابيع اختلفت أجندة القهر، وبدأت أتكيف مع الوضع، ثم بدأت أعي أن هناك قيوداً لابد أن تنكسر!!

....

أتت المدرسة رحمة من السماء، أراحتني من خزي الرعي وعذابه، قرر جدي أن أهتم بالدراسة ولكن لا يعني هذا عدم وجود أجندة أخرى!

الحرث رغم أنه أرحم بكثير من الرعي إلا أنه شاق ونكد، الحرث ينتظرني بعد أن أرجع من المدرسة المكونة من ثلاثة فصول فقط!

نحرث الأرض نطلق عليها نحن (البلاد) نحرث البلاد ونقلب التربة، الأرض الواحدة محيط لا حدود له يحتاج الواحد منها إلى ثورٍ وثورة لإنجاز هذا العمل!!

....

(مروان) أصبح هو الراعي الرسمي وأنا أصبحت الثور الرسمي!!

شهور طويلة وأنا أقلب تربة (أم التنباك) و (أبو الساحه)

و (السلف) و (الضميدة) الأتربة تعلوني والطبقات الأرضية فوق رأسي تجدد عهداً طباشرياً آخر!

أنفي مملوء بالوسخ وإذا لم أنظفه سيشكل خطراً على من حولي لأن عطسة واحدة كفيلة بأن تصرع العديد من البشر نظراً للتراكمات التي حدثت بأنفي!!

رغم أن (الحرّاثة) بالجوار إلا أن جدي يصر على أن أحرث بالطريقة التقليدية، أن أحرث بـ (صُبيح) وهو الثور الذي لم يترك لي ضلعاً سليماً، أضربه لكي يتحرك وهو ينطحني إذا غفلت، وأخي أحمد ينظر من أعلى ويضحك، ثم يسحب نفساً من شيشته العوجاء، وأتساءل هل كابد مثل ما أكابد؟!

....

معاناة الحرث لم تطل، توقفنا ننتظر الغيث وتلك السنة طالت فترة نزوله ونحن ننتظر وهذا الانتظار جعلني أقترب من المخلوقات الغريبة التي بالجوار!!!

١٣

لا أجد هنا إلا الشنفرى أباً روحياً لكل ممارساتي، لكني لا أجد برفقتي أحداً، لا تأبط شراً ولا السليك بن سلكة!

وحدي هنا أقارع الهواء في هذا الوادي اللعين، حصون خالية وبلاد مندثرة من كل حياة.

أيها الشنفرى قعسوس كانت بجوارك وأنت تقارع القبيلة، وحبيتي أنا بعيدة، وليس لدي ما أقارعه غير السدور وأشجار السلم.

أنت كنت تمارس الصعلكة برفقة أناس لعنوا القبيلة وخرجوا عليها، وامتهنوا الصعلكة وزرعوا الأرض أشعاراً وحكايات، وملأوا بطون الجياع من أموال أهل الجشع.

أما أنا فلم أزرع هذه الأرض إلا سباباً وبصاقاً، وحيدٌ هنا بلا سيف ولا فرس، أطعم كلباً أجرب وأنفذ تعاليم جدي العقيمة!

أيها الشنفرى أنت كنت تتسلى بقصائدك أما أنا فلا وزن لي ولا قافية.

أنت أحببت وناضلت وأنا أحببت ونُفيت!

ثم إنك أخذت وساماً من الفاروق بسبب لاميّتك، أما أنا فأخذت خيبات متتالية، حتى لومي لم يتجاوز حنجرتي!

أرأيت يا شنفرى كيف أنت وكيف أنا..

أنت تجاوزتني بمراحل وأنا لم أتقاطع معك إلا في شفتيك الغليظتين ورائحتك المنتنة ووسخك وشعثك، تقاطعت معك في قذارتك!

ثم في النهاية لم ترض إلا بالسماء قبراً، أما أنا فلن يأبه لي أحد وقد يرمون بجثتي بجوار هذه القبور المتجهة شرقاً!

١٤

في أيام الانتظار يعرض لي جدي قطعاً من السلاح، مسدسات وبنادق ورشاشات، بدأ يعلمني كيفية التعامل معها وكان يوضح لي أن السلاح لابد أن تتعرف عليه من قرب لكي تستخدمه بإتقان!

. . . . .

في الأيام الأولى كان يعلمني كيفية وضع البندقية وتثبيتها على المنكب.

- ثبتها على منكبك، لا ترمش، لا تتنفس.
- طيب
- يا حيوان لا تغمض وانت ترمي!
- طيب

كانت البندقية ثقيلة ولم يكن باستطاعتي أن أثبتها بشكل جيد، هذه المشكلة لم أتجاوزها إلا بعد أن كلفني جدي حمل قضبانٍ من الحديد الصلب ساعات متواصلة لكي أتدرب على تثبيت البندقية كانت ساعات متواصلة من العذاب ألم الساعدين فظيع، أما آلام الظهر فلا تداعبني إلا ليلاً!

. . . . .

بعد مرور الأيام أصبحت البندقية كالريشة بيدي لدرجة أني أثبتها بيدٍ واحدة فقط وأصبحت إصابة الهدف أمراً سهلاً.

جدي بعد كل حين يأمرني أن أزرع الجبال البعيدة بأهداف كثيرة حتى أن بعضها تبعد كيلومترات عديدة، وبعضها قد لا يُرى إلا بالدربيل والذي لديه نظرٌ ثاقب بالكاد أن يراها!

نقطه صغيرة جداً تغيب وتظهر وأحياناً نستعين بالمنظار لتحديد مكانه، جدي لا يرى أغلبها بالعين المجردة بل لابد أن يراه بالدربيل ثم يوجّه عليه البندقية بغلبة الظن ونادراً ما يخطئ!!!

الذين أدمنوا البارود هم من يحركهم من بيوتهم أصوات البنادق عندما تهدر، فيتجهون إلى أماكن الرماية فيجلسون يتنافسون على الرمي (حبش) يرمي الحراج بيد واحدة وعبدالله (الضجر) يرميه بيدٍ واحدة وهو واقف وأخي أحمد يرميه بيدٍ واحدة وهو واقف على قدمٍ واحدة!!

....

(فرخ البلجيك) بندقيتي المفضلة أصبحت أحصد بها الأهداف واحداً تلو آخر، بعد أن أصبح رأسي مليئاً بـ(العراجم) جرّاء ضربات جدي بسبب عدم إصابة الأهداف، كل هدف أخطئ إصابته فإن جدي لا يخطئ ضرب رأسي بعصاً غليظة، وعندما قسى رأسي أتقنت الرمي!!

(السوجر) أو (الشوزن) وهي أسماء محرفة من الاسم الأصلي ال(شوت قون) بندقية لصيد السباع والحيوانات القريبة ليلاً لأنها لا تحتاج إلى كثير عناء في الإصابة مجرد أن توجهها إلى شيء فإنها تصيبه وإذا كان قريباً جداً فلن تجد إلا بعض الأجزاء الصغيرة الممزقة وذلك لأن طلقتها عبارة عن حبيبات تنتشر بقوة هائلة، الشوزن إن لم تمكنها بشكل جيد فإن كتفك الناعمة قد تنخلع!

١٥

جدي لا يذكر لي عمره، حتى ولو قرأت عليه (ن والقلم وما يسطرون) تلك السورة التي يأمرني بقراءتها عليه كلما سألته عن عمره!

ولكن الذي أعلمه علم اليقين أنه قد أصبح أحفورة في هذا المكان المنزوي تحت جبل عظيم يدعى (الحوبه)!

. . . .

سألته يوماً عن عمره، فطردني من البيت، وحرمه عليّ، إلا أن أجلب له (وبراً)!!

والوباره عندنا هربت من رصاص الصيادين وسكنت قمم الجبال وجدي يطلب مني ان اجلب وبراً.

أعطاني بندقية من نوع (برنو) - وهي سلاح خفيف تشيكي الصنع - ومعها خمس رصاصات فقط!!

لازلت أتذكر تفاصيل ذلك اليوم، شمس حارقة وبندقية تعيق سيري وصعودي، ورحلة صيد منهكة، وخمس رصاصات فقط ويريد جدي في آخر النهار أن يأكل لحم وبر!

صحيح أن رعي الغنم علّمني الصبر ولكن لم يعلّمني تسلّق السفوح الخطرة.

طيور الحجل السمينة تنفر عن يميني وشمالي، وجدي لا يريد إلا وبراً، وخمس رصاصات وجدي يهددني أن يضعها في دبري إذا رجعت بها!!

ضحكات الوباره أسمعها عندما أرعى الغنم ولا أراها، الوبر حيوان حذر لا يُرى كثيراً، له نظرٌ ثاقب، وسمع لاقط، يكون في جماعات يحرسون بعضهم البعض!

استرحت تحت سقيفة، تمددت على أرضٍ باردة تبعث على النوم، أحسست بثقل النوم، عيناي بدأتا تستسلمان لداعي النوم، كنت أبتسم وأقول في نفسي: ليذهب العجوز الى الجحيم!

بعد ساعات لذيذة من النوم سمعت أصواتاً من بعيد، ضحكات متتالية بالجوار، فتحت عينيَّ وبدأ قلبي يخفق.

- وباره!

تحركت ببطء من مكاني، رفعت رأسي قليلاً، مسحت المكان، السفوح المجاورة، لم أجد شيئاً!

الضحك لازال مستمراً، ذهبت إلى مكان آخر في السقيفة زحفاً أخذت نظرة أخرى..

- يا ملعون

سمين (يترجرج) شحماً، لونه الفئراني يلمع مع أشعة الشمس، أخذت البندقية أخرجتها من بين أعمدة السقيفة، ببطء مددتها، النيشان تغيب الحبة فيه وتظهر، رأس الحبة يكاد يظهر وضعت الحبة في وسطه لكي أضمن إصابته مع أن المكان القاتل هو الرأس ولكن لا أضمن الإصابة، الرصاص الذي في بطن البندقية من النوع المتفجر إذاً لا بد من إصابته في أي مكان.

في تلك اللحظة كانت تدور برأسي أمور وأمور، الفوز بالصيد، وجبة العشاء الدسمة، الأنياب التي سوف أزين بها أخمص البندقية! الزناد أسحبه تجاهي ببطء لم يبقَ إلا شعرة، فجأة أحس بي الملعون، رفع رأسه ينظر، هرب أصبحت أتبعه انطلقت رصاصة تشق الفراغ الذي بين فوهة البندقية والوبر، سرعة الطلقة لم تجعل له مجالاً للهرب طار عالياً وتناثر فرثه في كل مكان، صرخت ورفعت البندقية عالياً متوعداً جدي بأن أدخل الرصاص الباقي في دبره!!

حالة هستيرية انتابتني في تلك اللحظة، لا يشعر بذلك إلا من اصطاد لأول مرة، كانت فرحة بالصيد والفوز.

وضعت البندقية لكي أصعد وأجلبه ولكني تذكرت أحد دروس جدي عندما ذكر لي أن من العار أن تترك سلاحك خلفك لابد من أن تحمله معك في كل مكان، لأن ضياع السلاح عارٌ لا يمحى أبداً!!

ذهبت إليه، بدأت أتسلق الجرف، غلطة بسيطة ربما تجعلني أتمزق قبل أن أصل إلى الأرض، التسلق شاق ولكن هونه الصيد الذي ينتظرني بالأعلى، الصخور لم تكن متماسكة، بعضها ليس له أصل وبعضها سريع التفتت، أشواك السمر والسلم تنال مني هي أيضاً.

عندما اقتربت من المكان، لم أستطع أن أبلغه رفعت يدي أبحث عنه أخذت أجوس بيدي في المكان ثم أمسكت به وسحبته ولكنه باغتني الملعون وعضني!

غرز أنيابة الحادة في كفي شعرت بهزة عنيفة سرت بجسدي سحبت يدي وأصبح معلقاً بيدي، ضربت برأسه على صخرة ولفظ أنفاسه الأخيرة وهو معلق بيدي، فار الدم ساخناً، شعرت بالدوار وشمّت النسور رائحة الدماء ورأت الوبر المعلق بيدي وبدأت تحوم

حولي وتهاجمني لكي أتنازل عن الوبر، خلصت يدي من أنياب الوبر المعقوفة ووضعته بين صدري وقميصي الغارق بالدماء، النسور لم ترتدع أصبح وضعي محرجاً فحركة بسيطة قد ألقى حتفي، بدأت الشمس تميل نحو الغروب، والنسور اللعينة اجتمعت عليّ، بعضها يحاول أن يجعلني أفقد توازني، كنت أحاول أن أتماسك ولكن النزيف بدأ يشتد وبدأت أضعف، في تلك اللحظة لم أفكر في النزول كنت فقط أحاول أن أتشبث بالسفح أطول فترة ممكنة، أصبحت أمسح عرق جبيني بالحجارة التي أمامي، لم أتوقع أن فرحتي لن تكتمل.

فجأة سمعت بندقية تثور وريش متطاير حولي مما جعل بقية النسور تغادر المكان بسرعة!

كان جدي!

جدي عندما رأى النسور من بيته وهي تحلّق مجتمعة علم أن هناك أمراً قد حصل فأتى سريعاً حاملاً بندقيته.

جدي صعد إليّ وأمرني أن أضع قدمي على عاتقيه وهو ينزل بي!!

نزفت كثيراً وصعد جدي ليحضر البندقية لعدم تمكني من حملها، عندما نزل أخرجت له الوبر من بين ملابسي ورفعته دليلاً على الظفر والنصر!!

في المساء سلخه أحمد وطبخه لنا.

ما ألذ الطعام الذي نشقى من أجله!

١٦

مرّت الشهور سريعة، وفي أحد الأيام دعتني إدارة المدرسة وسلمت لي رسالة بعثها لي حمودة الأجرب قلت في نفسي:

- يخرب بيتك ياحموده دوبك تذكرتني.

الظرف لم تكن به رسالة بل كان شريط كاست ٩٠ دقيقة، حمودة الأجرب ربما تأثر من عادة الهنود عندما يرسلون إلى ذويهم شرائط كاسيت لكي يتكلموا بكل حرية وأريحية.

في المساء وضعت الشريط بالمسجل، مسجل جدي عليه كسوة خضراء و (دناديش) مزينة بحبات خرز ملونة، هذه الحلة كانت من صنع جدتي، لففت سجارة تبغ محلية!! وبدأ حمودة الأجرب يتكلم:

«يا واد يا بو زهرة كيفك؟

وحشتني مرّه، ايش مسوي في ديرتك؟

أكيد ترعى الخرفان وتطارد التعلب الماكر، شوف الكلام على الكاست فيه ونس وكدا ح اتكلم على راحتي OK، أكيد انت تضحك عليا عشان سجلت كلامي في شريط زي البنقاله، تعرف المشكله ايه؟ أنو لمن جيت أمسك الورقه واكتب ماقدرت ولمن دخلت الشريط وبديت التسجيل صرت اتكلم سهاله.

بصراحه يا زهران النزلة مالها طعم من يوم مارحت! - لاتصدق-

صارت مملّة، صدق حتى أغاني طلال ما عاد يشغلوها في الفسحه زي زمان، المدرسة يا زهران صارت زباله، تعرف الواد سمير أبو يمن صار يوزع أفلام سيكس في المدرسة و. . .

ايش جاب سيرة المدرسة دحين؟!

صاحبنا (زاهر الشريف) في السجن كفشوه وهو مفلل في الحديقة المائية وضرب عسكري ولبسو فيه أكثر من قضية السكار والضرب وما ادري كيف وضعه؟!. . .

(الجوش) صرنا نسويه عند مقبرة (شاهر) عشان عم (خميس) قبل ما يموت قلي:

- ياواد ياحموده إذا مت خلو المزمار جنب المقبرة عشان اتونس بيكم!

وصرنا نسويه هناك، بس كثرت (المقاشعات) آخر الأيام، حتى جاب لنا العمدة شرطة (النزلتين). . .تخيل. . .العمدة يبغى يحرمنا من الجوش بس ترى نحنا. . .

تعرف الواد تركي المالكي يقولوا راح البوسنة عشان الجهاد وأمه يعيني حزنانه ومتكدرة. . .

والله يا زهران في حاجات كتيره أبغا اقولها بس ماني عارف كيف؟!

والله ما أدري

ح قول وبس

زهران بنت خالك نجوى شردت!!!

ولقوها بعد يومين عند الحجة بركة اللي تبيع قمر الدين.

اللي عرفته انو الخال إبراهيم الصبياني ورى المسخره دي وقبل كم يوم تجمعوا أعيان الحارة في بيت عم مصطفى ابو سعيده ولكن بدون فايده عم مصطفى قال:

- ما دام افسد سمعت البنت لابد يتزوجها.

بس خالك قال:

- ما أزوج بنتي لعبد!!

المشكلة فين - معليش يازهران أنا طفشتك بموضوع زي كدا بس عشان تكون في الصوره - تعرف المشكلة ايه؟!

انو البنت تحب (الخال) موووووت، والخال الكلب لمن نصحوه يتزوج البنت قال:

- ما بقي الا أتزوج بنت المغزول!!

وأولاد عمك جن جنانهم لما وصلهم الخبر، وراحوا كسروا باب بيته وجروه من ارجولو وطلعوه الشارع وضربوه وخرجوا ام الخال وأخواته من غير عبابات وصاروا يزعقوا وخرجت الحارة كلها...

بصراحة يا زهران الحارة صارت زفت وانا بصراحه ما أنصحك تجي دحين لأنو...

خالك قرر ينقل من الحارة عشان الفضيحة، وأولاد عمك ما عاد يتكوا في المركاز ونجوى ايش أقول عنها بس مسكينه ملعونه بس هو الحب يعمي ويصم يا زهران هيا دحين في دار الرعاية......

وفيصل هوساوي راح زار ابراهيم الصبياني بعد ما انفرش وطاح فيه تهزيء وقاله:

- يا كلب مرة تانية إذا تبغى تلعب ألعب مع بنات برا الحارة!

وبصراحه ما ادري ايش حكاية بنات حارتنا الأيام دي كل بعد كم يوم تشرد بنت من بيتها.

وخالة سعدية التي تبيع اللحوح تقول:

- بنات الأيام دي فيهم محنه زياده، شكلهم ما يختنوهم قالوا ايه الختان بطال للبنات يا ولدي لو ما ختنوني أهلي مزبوط كان صرت زي حصة الشرموطة...

كمان في خبر مو حلو...

تعرف زاهد الفلسطيني قتل أبوه وزوجة أبوه وأخوه الصغير وبعدين انتحر وصارت الجرايد تتكلم عن سفاح النزلة و...

أبوك يا زهران ما عاد يجلس معانا في المركاز حرمنا من حكايات حمزة البهلوان وأساطير الجهيمان...

اعرف انو نكدت عليك وشكلك كدا مغبر وريحتك غنم بس هدا كلو عشان بكرة النهار ما تقول بلسانك الوسخ:

- التكروني حمودة خبى عليا وما كلمني.......

أبو زهرة رد عليا تمام... سلام

زهران في شي كمان يهمك، البنت اللي تحبها سافرت عشان تكمل دراستها.. سلامو»

ثم أطفأت السجارة!!

١٧

أصبحت ألوان العالم باهتة، لساني لم يخرج من حجرته لأيام والبيئة هنا تعاونه على السبات، الفقد يمزق روحي، وملامح وجهي جامدة، منفى وتيه ورحيل غير مبرر!!

....

الصمت يلفّ المكان، وأنا أجول بناظري في معالم الأرض، أحمد واقف قرابة الساعة أمام شيء ما، أخذت (الدربيل) كان ينظر أمامه في شاة مبقورة البطن!!

ذهبت إليه كان غاضباً جداً ولأسنانه صرير، يسب ويلعن ويتوعد الفاعل بانتقام شديد!

- خير؟
- جعري لعين نهش بطنها، باقي لها أسبوع وتضع..
- وش دراك انه جعري؟
- الجعري ما يقتل مثل بقية السباع، بل ينهش من فريسته وهي حية، شوف الملعون بس نهش بطنها والباقي سليم!
- جدي كل يوم يفقد واحدة
- إذا مالعنت والديه ماني أحمد..
- ونعم يابوحميد، يعني ايش ح تسوي؟

- الخبر ليس كالمعاينة
- طيب يابو زيد
- بكره اطلع الجبل
- متى تطلع؟
- غبشه
- خلاص اطلع معك
- ترى بتأخر يمكن اقعد خمسة أيام مابنزل يا انا يا هو
- انا رفيقك
- طيب الليلة بطلع انصب المصايد وانزل وبكره الفجر نطلع

ذهبنا فجراً لا نحمل سوى البنادق وفخاخاً أخرى.
ساعات النهار قضيناها في الصعود، كنا نقف لننصب فخاً.
أحمد كان يشق الجبل كسيلٍ صاعد يرجو لقاء خصمه، وأنا لم أعتد صعود الجبال دون راحة، زرعنا الجبل بالفخاخ ثم توجهنا الى إحدى السقائف قبل حلول الظلمة.

....

لأول مرة أنام في الجبل، عالم آخر، حياة وأصوات وأكسجين مختلف!
أحمد نام مبكراً، وأنا بقيت أمام النار أقلب الحطب، أحاول أن أسد الجوع بشرب الشاي ولكن هيهات!
الثريا واضحة في قلب السماء، أصوات الحشرات والضفادع تكوّن موسيقى رتيبة، البرد ينخر العظم، نمت هرباً من الجوع!

استيقظ أحمد قبلي وصلّى الفجر ونزل ينظر إلى فخاخه التي نصبها أمام المغارات وفي الشعاب الصغيرة، وأنا من فرط الجوع ذهبت أبحث عن شيء أقتات به، لكن لم أجد سوى بعض (الشار) و (البشام)، قطفت الكثير لنوبات الجوع آخر الليل.

أحمد رجع خائباً، أعطيته بعض النباتات، كان يأكل بصمت، كنا ننظر إلى القرية من أعلى..

- بيوت القرية رائعة من فوق!
- كلها حصون
- الحصون المنيعة شيء نفتخر به
- نفتخر بأن أجدادنا كانوا حراميه وقطع طرق!
- من قال أنهم قطاع طرق؟!
- يا حبيبي شوف المكان، تأمل فيه، شوف الحصون والمتاريس ومئات الأقبية كلها تدل على أن أجدادنا قطاع طرق طال عمرك!!
- يعني؟!!
- يعني أن التغني بالبطولات ومئات المؤلفات التي خرجت كلها تعصب وجهل!!
- أبويه لو سمعك ح يزعل عليك..
- يا زهران ليش نكذب على نفوسنا، العادات القبيحة كانت منتشرة عندنا، كانت عندنا موبقات يا رجل.. شوف حصون منيعة من عدة طوابق وبيوت حجر على قمم الجبال ولا يوجد جامع لم يبني أحدهم مسجداً لله لم نعرف المسجد إلا قريب هذا ايش تفسيره؟!!
- يعني تكره القبيلة؟

- لا القبيلة فيها أشياء جميلة وخصال حميدة، الكرم والشجاعة والنخوة بس يا زهران ما في شي يستحق التعصب والتغني بالعادات..

....

أصابنا الجفاف والإمساك، أصبحنا نبعر مثل الماشية، لأننا لم نتناول غير النباتات!!

في اليوم الثالث وقبل المغرب أتى أحمد بـ(حجلة) سمينة، طبخناها في القدر الذي قد اغبر في السقيفة من شهور، تناولناها على العشاء. الدسم الذي بقي من العشاء تدهنّا به ومسحنا به وجوهنا الجافة!

في ذلك المساء ضحكنا كثيراً، تحدث أحمد على غير عادته، وأخذ يردد بعض أشعار القبيلة، يذكر مناسبتها، ويعلق عليها

- والله مبسوط يابو حميد اللي يشوفك يقول جندل الجعري!
- إذا ما نحرته وانا أخوك ماني أحمد
- أنا اشهد

....

قبل أن نخلد للنوم سمعنا جلبة ورأينا أعيناً تقدح، أخذت البندقية وبدأت أطلق تجاه الصوت، هو يضحك ويقول:

- وفّر الذخيرة أحسن، شكله حصين

....

أغلقت مدخل السقيفة بإحدى الـ(صِليّ)، حاولت أن أنام ولكن لم يأت النوم، كنت أنظر إلى السقف..

- أحمد. . . حبيت فتاة من القبيلة؟
- ليش السؤال؟
- أبغى أعرف الفرق بين أن تحب فتاة من قبيلتك وفتاة أخرى من غير القبيلة!
- الفرق واضح ما يحتاج له فقيه!
- وضح لي أكثر
- فتاة القبيلة لا تعقد بها آمالك، هي مجرد متاع يباع ويشترى، الأنثى هنا قد يشتريها أي شخص حتى ولو كان مخنث!!
- استغفر الله. .
- أعطيك الكلام الصحيح
- طيب
- الأنثى هنا جميلة لا ينقصها شي ولكنها سراب، هي ريشه في مهب ريح القبيلة، ليس لها كلمة ولا رأي وليس لها حتى جزء يسير من الثمن، هي لا تستطيع أن تفتح فمها بحرف، أن تقول: لا ؛ هذا هو العار الذي لا يغسله إلا الدم
- ول ول شكلك حبيت وحده وطارت
- طارت بعد أن حفرت اسمها في كل البلاد التي تحرثها أنت الآن، كنت أكتب اسمها بالحراثة، كان الجميع يرى الرسم وهي الوحيدة التي تقرأ. .
- مجنون!!
- وبعدين. .
- جا واحد خبل مع أبوه عند أبو البنت وقال: لنا حاجه، قال: ابشروا ولو على رقبتي، قال: نبغى بنتك لولدي هذا قل: تم!. .

- طيب
- تم!
- أيام قليلة ثم عرفت الخبر بأصوات البنادق التي زفتها!
- ....
- الفتاة الأخرى تستطيع أن تقول: لا
- ....
- تستطيع أن تقول: أحب
- وتستطيع أن ترحل!

....

صباح اليوم الرابع نزلنا من الجبل، مررنا على الفخاخ لم نجد شيئاً، أحدها كان بلا طعم!

عندما اقتربنا من الغدران رمينا ملابسنا وقفزنا بعُرينا في الغدير، كنا نسبح لنخرج درن الجبل من تحت جلودنا السمراء، درن الليالي الثلاث لا يزيله إلا ماء الغدير الذي ينهش بلذة!

جلسنا بعد ذلك على إحدى الصخور، تجففنا الريح، ارتدينا ملابسنا ونزلنا إلى الوادي نصنع جلبة ونطلق ضحكات.

بعد أن وصلنا انطلق أحمد لإحضار الفخ الذي وضعه عند الشاة المبقورة.

تأخر، خشيت أن يكون قد وقع في الفخ، ذهبت لأرى، فكان مشهداً مرعباً!

الضبع في الفخ وقد أغلقت المصيدة على يده وهو يدور بها، لم أرَ في حياتي ضبعاً أكبر منه، يريد أن يهاجمنا ولكن السلسلة

المربوطة تكبح تقدمه، يكشر عن أنيابه ويرفع شعر رقبته الكث!

أحمد يطلب مني البندقية ولكن الذخيرة نفدت، ثم طلب مني أن أشغل الضبع!

نزع ثوبه الأغبر وأصبح بالسروال القصير، وأخرج سكينه الـ(راجس)، أنا وقفت مذهولاً من فعله، هذا الذهول كان كفيلاً بأن أصبح بين فكيّ الضبع فقد تقهقرت وسقطت ثم اندفع الضبع نحوي رغم إعاقة المصيدة له، قصدني وفي تلك اللحظة قفز أحمد على ظهره وغطى رأس الضبع بالثوب، الضبع يحاول أن يتخلص من أحمد والرداء، أصبح يدور ويدور، بدأ الغبار يتصاعد، السكين ذات الحدين حلت النزاع، الدماء بدأت تكسو المكان والضبع المجندل يخور على الأرض ويصدر أصواتاً تتوسل الحياة!

نهض أحمد وبه بعض الجراح والرضوض، كان يبتسم عندما تقدمت نحوه!

- هاه كيف أخوك؟

نشف حلقي، جلست مبهوتاً قرابة الساعة، لبس ثوبه وقام وبقر بطن الضبع وأخرج أحشاءه ثم سحبناه إلى سدرة كريمة تدعى (أم الدود) علقنا الضبع برجليه على السدرة، جدي رأى المنظر وأخذ بندقته يطلق منها أعيرة نارية تخبر القبيلة بأمرٍ عظيم!!

جاءت القبيلة تلبي النداء، اجتمعت لتشاهد الضبع، (طلّق) جدي أن العشاء عنده وفي العصر سيستضيف الجميع لرمي الحراج.

في العصر أخرج محسن الضاري (الزير) من بيت جدي وأخذ يقرعه بسرعة وببراعة، وأخذ الجميع يتوافدون إلى المكان!

أخرج جدي جنبية بيضاء وحزمني بها!

القبيلة اجتمعت من كل مكان، بعضهم أتى هو وأفراد عائلته يرقصون من بعيد!!

انقسمت القبيلة بين رامٍ بالبندق وراقصٍ للعرضة.

أنا رقصت بلا قانون، رقصت كيفما اتفق مع إيقاعات الزير التي تزرع في داخلك وحشاً ثائراً، كان جدي يرقص معي أيضاً أخذت أرقص وأقفز رافعاً جنبيتي، كنت أحدث نفسي: أين أبي ليرى رقصي وأخبره أني أفكر بها !!

أن تعرض:

أن تطبع إيقاعاً جبلياً فوق الأرض

وفي أحلام الفلاحات

أن تقضم صخراً ورصاصات

أن تتشظى حجراً حجراً

أن تشرب في قدح مثقوب! (*)

(*) قصيدة لعبدالرحمن الشهري

١٨

أصبح الوضع مستقراً جداً، (مروان) يرعى الغنم والبلاد حرثت وسقاها المطر وبذرناها وأصبحنا ننتظر الحصاد، أصبحت على شبه وفاق مع جدي، وأصبح لدي مجموعة نتسامر سوياً في ليالي الشتاء الطويلة.

كنا نجمع الحطب ونوقد النار ونضع البراد الأصفر على الجمر وقبل أن يغلي نضع كمية من الشاي الخشن وبعض فناجين السكر الكبيرة ثم ننتظر قليلاً حتى يغلي ثم نضعه جانباً حتى يخدر قليلاً وقد نضع معه بعض أغصان (البشام)، ثم يبدأ التوافد على العريش الذي شيّده جدي بعيداً لكي يتجنب إزعاجنا.

(رزق الله الأعمى) رجل أربعيني كفيف يحب الفكاهة ويعزف على آلة العود بشكل ساحر.

(محسن الضاري) كهل خبيث يحب النساء وينظم قصائد فاحشة في بعض نساء القرية!

(سعيد حبش) شاب مغرم بالقنص والرماية ترك المدينة بعد أن تخرج من الجامعة وفضّل السكن في القرية.

(أحمد) أخي من أبي، يعشق حياة الجبل، به نوع من الغموض ويسيطر عليه هاجس لا أعلمه!

واحدة هي من قد تشتت هذا الجمع، ويعجبها ذلك لكي تخلو بي وتحدثني طويلاً، كانت تبغض كل من في المجلس، تكره رزق الله لسخريته بها ومحسن لنظمه الفاحش وسعيد لوعظه وأحمد لمراقبته!!

١٩

(حسناء العقلة) كائن غريب لا أدري رجل هي أم امرأة؟!، ضخمة جداً سوداء متوشحة سكين ماركة (أبو شوكة)، تستر شعرها بطرحة حمراء على جوانبها فصوص فضة وفي معصمها ساعة ضخمة من نوع (سيكو) رجالي، وتحمل عصاً طويلة والكل حائر في جنسها وإشاعات حول ذلك!

الغريب أن حسناء هذه تتعامل مع الجميع بخشونة وجلافة وأما معي فهي في غاية اللطف، عندما تراني تعلوها ابتسامة بيضاء وبريق سنّ الذهب يلوح، يفزع منها الجميع وهي تفزع لي عندما تراني وتحضنني بقوة، تفوح من جسدها رائحة الطين والريحان والكادي والطيب، ويتساقط البعيثران المغروس في جيبها على رأسي، رغم منظرها المرعب إلا أنها تتضوع طيباً!!

تقول لي أمي إنها كانت تغنّي لي عندما كنت رضيعاً.

في أيام الانتظار كنا نجلس نقطع جزءاً من الليل نتحدث، كانت تحدثني عن أيام خوالٍ، عن أبي وشعره الطويل المليء بالقمل، عن بندقيته (شقص) التي لم يصطد بها شيئاً!!

في قريتي كل شيء نجعل له أسماء وألقاباً حتى نكوّن علاقة حميمة مع الأشياء وإن كانت جماداً، الأرض والسلاح والحيوانات

والجبال والأودية نناديها بأسمائها نتحدث معها في خلوتنا وهي تنصت!

. . . .

حسناء كلما أود أن أتحدث عن جنسها وترجلها أتوقف لأني أخاف أن أخسرها للأبد، فهي تكره أحمد لأنه من أولئك الذين يودون أن يعرفوا سر جنسها، كان يتبعها بالمنظار إذا خرجت للخلاء نهاراً ولكنها دائماً ما تولي دبرها له وتشتكي إلى جدتي من قذارته وسخفه!!

٢٠

تصرّ حسناء أن أرى سميّتها، لم أتشجع لذلك كثيراً ولكن إصرارها دفعني لذلك، سميّتها لم تكن كائناً عادياً بل كانت مخلوقاً استثنائياً بكل المقاييس، كانت فتاة بمثل سني أو أكبر بقليل، أعجوبة في الخلق والقوام، غريبة على بيئة متوحشة، كريمة أكرم من الغيم، عندما تضحك تشرق شمساً أخرى في القرية!!

لا أدري لماذا سقطت من الزهرة على هذه البقعة من الأرض؟!

ترعى الماعز وتحمل الحطب، عندما رأتنا انقضّت على سميّتها أحضاناً وقبلات، بعد أن رمت الحطب على الأرض.

- هذا زهران
- هلا، كيفك؟
- تمام
- هاه كيف الديره؟
- كلو ماشي
- لا يكون تعبت؟
- لا، يعني شوية قرف بس تعودنا عليه
- لما دحين قرفان؟!
- لهجتك حجازية والا مو؟!!

- ايوه كنت ساكنة بمكة
- طيب ايش جابك هنا؟!!
- زوجني أبويه بدري. . . وخلاص
- وبعدين
- ولاقبلين. . . هو صح الجو هنا متغير حبتين بس أهه عايشين.
- حبتين؟!!!
- في البداية حسيت انو منفى. . . بس تعرفت على ناس حلوين نسوني المر زي اللي جنبك.
- والله هي حكت ليه عنك
- لاا!
- بخير والله، الجميل أنك متفائلة ما شاء الله تبارك الرحمن
- والله يا أخويه لو مو متفائلة كان زماني رميت نفسي من أقرب جبل!!

العقلة لم يعجبها إقصاؤنا لها فقالت:

- انتم وش تبرتكون؟!

تنبهت أنني أتحدث مع امرأة من قبيلة، خشيت أن تنهال عليّ أعيرة نارية، أنهيت الحوار من قبلي لتذهب في طريقها.

ذهبت (حسناء) التي قد حلّت عليها لعنة القبيلة، برهاناً يشع نوره يقرر معتقد أحمد!

ذهبت كريح الصبا، وجسد ممشوق وعرقٌ يتفصد وبياضٌ يتلألأ وروحٌ عذبة في وادٍ جاف!

٢١

سألت حسناء العقلة عن تاريخ أبي وأمي المجهول:

أجابتني لهجتها القروية التي لا تخلو من كلمات أجهل معناها وقصائد لا علاقة لها بما أريد!

أبوك يا (فرخيه)....

وُلِد أيام المجاعة التي اجتاحت جنوب الجزيرة، لم يجد العطف إلا من أمه التي لم تعمّر طويلاً فقد ماتت وهو لا يزال صبياً، تولى عمه (الفقيه) تربيته وتعليمه القراءة والكتابة وحفظ بعض السور القصيرة، بلغ أشدّه وبدأت تجتذبه صبوة الشباب فأصبح شعره طويلاً ومزيناً بالريحان، ثم حصل على بندقية قديمة وأصبح يحملها في كل مكان لأنها دليل على الرجولة والشجاعة.

أصبح وقته بين الجلوس مع شباب قريته، والذهاب إلى رحلات الصيد، أما إذا كان الجو غائماً فإنه يجتمع مع شباب القبيلة لكي يلعبوا (الساري) بعد أن ينزعوا ملابسهم وحتى أزرهم لكي لا تتلف!

....

لاحظ والده علامات الرجولة تتسم عليه، فقرر أن يزوجه من إحدى قريباته، ولم يمضِ وقت طويل حتى تزوج تلك المرأة الهادئة قليلة الكلام كثيرة الود والمحبة لزوجها الشاب (البواردي).

تغير كثيراً، أصبح يهتم بزوجته وأرضه؛ فمن المنزل الحجري الصغير إلى أرضه الواسعة التي زرعها ذرة وشعيراً وأصبح يحميها بـ(مرجمته) من الطيور.

بعد سنة من زواجه رزق ابناً أسماه (أحمد) على اسم أبيه كما هي العادة في تسمية الابن البكر، عندما أتى هذا الابن عرف أن الحياة كفاح!!!

في صبح أحد أيام الصيف المملة، استيقظ صباحاً، كانت زوجته تضمّه بشدة، شعر أنها تريده أن يبقى بجوارها، فلبى الطلب وأكمل نومه.

بعد أن انتصف النهار استيقظ مرة أخرى ووجد زوجته لازالت تضمّه مرة أخرى وعندما حاول أن يزيح يديها برفق وجدها باردة، كانت يابسة، همس لها مراراً وخاطبها، هزها برفق، ثم هزها بشدة ثم نزلت دمعته الحارة على جبينها عندما علم أنها ماتت!!!

أظلمت الدنيا عليه، وأصبحت دياره التي يعشقها مجرد جبال وحجارة وأشجار يابسة مليئة بالدواب، فقرر الرحيل إلى المدينة عله يجد فيها ما يؤنسه ويخفف ألمه وحزنه، قبل أن يرحل جعل ابنه تحت كفالة جدته لأمه فهي أقرب الناس إليه.

عندما وصل إلى المدينة توجّه الى ابن عمته الذي كان يكبره سناً ومعرفة فأدخله مدرسة محو الأمية ليتعلم أكثر وأيضاً أدخله

السلك العسكري برتبة جندي، كان يستلم بعض الريالات آخر الشهر.

....

غرق في متاهات المدينة ورأى كثيراً من العجائب التي لم تكن في قريته!

٢٢

أما أمك فهي جمال القرية بل القبيلة!

زفت على رجل في عمر والدها العجوز، رغم انزعاجها ورفضها لضغوط وقوانين القبيلة إلا أنها زفت مكرهة، رغم الاستنكار العام من شباب قريتها الذين يشعرون بالجور والظلم الذي حل بها!!

الدفوف تقرع بالنفاق والقصائد يفوح منها رائحة المجاملة الكاذبة.

في المساء ذهبت إلى بيت زوجها، نصحتها والدتها كثيراً وأخبرتها أن الخير كله في الرضى بما قسم لها.

بعد أسبوعين مات والدها، فقررت أن تتمرد وتثور على قوانين القبيلة وذلك بأن تهرب من بيت ذلك العجوز.

قررت أن تستشير أخاها الكبير الجشع الذي استغل هذا الموقف لصالحه، فطلب منها وكالة عامة!

كانت تلك الورقة تنص على تنازلها عن حقها في الورث لأخيها الجشع، لأنه يرى أنه ليس من الإنصاف أن تذهب أملاك وأراضي ومزارع والده إلى الغرباء!

في المساء حملت بعض ملابسها وتوجهت إلى منزل والدها

وأخبرت الجميع أنها لن ترجع إلى ذلك الرجل ولو قطعت ومزقت إرباً.

تعرّضت للأذية قولاً وفعلاً وتألمت من تخاذل أخيها عنها بعد وعوده الزائفة، وأصبحت تعاني الأمرّين من جحيم الأهل وجحيم الزوج الذي قرر أن يجعلها كالمعلقة!

....

بعد قرابة ثمانية أشهر من هذه الأحداث اجتاح الطاعون كل القرى والمحافظات ومات كثير من البشر ومن أولئك الزوج العجوز!

قررت أن تتمتع بحياتها دون أن ترتبط بأي أحد مهما بلغت صفاته، فتجربتها الأولى صنعت لها سداً كسد مأرب بينها وبين الرجال!!

٢٣

في أحد الأيام القليلة التي كان يقضيها في قريته أخذ يتجول في نزهة بسيطة، هنا في (الحوبه) رأى تلك المرأة التي كانت حديثة عهد بحداد ترعى بنزق!

....

كان قد صعد هو قبلها وأخذ معه مزماره وعندما وصل إلى السقيفة، أخذ يزمر بحزن.

كانت تتتبع مصدر الصوت وهي تسوق ماشيتها إلى الغدير، تركت الماشية تشرب من الماء وذهبت هي إلى مصدر الصوت، رأته تحت السقيفة، هي تعرف أن هذا الشاب يشعر بالفقد بعد أن رحلت زوجته، أخذت تسرق النظر، علق حمل لها في مكانٍ وعر، حاولت أن تنقذه، شاهدها وهي تحاول إنقاذ الحمل، نزل من السقيفة وتوجه الى الحمل وضمه للقطيع، أعطته بعض اللبن، كان يشرب من القدح وكلٌ منهما يسترق النظر إلى صاحبه!

ربما هذه النظرات كانت كفيلةً بأن تهدم ذلك السد الذي جعلته بينها وبين الرجال!

٢٤

لم يكتم الشاب ما كان يدور في نفسه، تقدم إلى أهلها وطلب يدها، ولكنهم أرجعوا الأمر إليها، فهي صاحبة القرار.

فكرت كثيراً ودار في خلدها العديد من التقاطعات فهما شابان وقد سبق لهما الزوج من قبل وكلٌ منهما يعرف الآخر ومقتنع بخلقه ودينه، وهو يعمل في المدينة وهي بشوق لرؤية المدينة التي طالما سمعت الكثير عن غرائبها!

قبل أن يعود إلى المدينة، ذهب لزيارة أهل المرأة يتحرى الجواب.

طُرحت بين يديه أقراص الحنطة وحولها أقداح من العسل والسمن واللبن الطازج، ثم أخبروه أنها وافقت.

حدد الجميع موعداً لعقد النكاح والزواج بعد سنة حتى يتسنى له جمع المهر والتجهيز.

مرّت تلك السنة سريعاً وتم الزوج ومارس أفراد القبيلة طقوسهم البديعة فرحة بذلك الزواج.

أقيمت طقوس الفرح، ترحيباً ورماية وعرضة.

تناول الجميع الوليمة بعد صلاة المغرب، ثم هيئ مكان للعروسين بعد أن تلاشت الطقوس وهدأت ألوان الجنون!

الزوجان يتهامسان بحنين ويتبادلان القبلات إعلاناً بافتتاح حياة جديدة مليئة بالود والمحبة انتهت تلك الهمسات واللمسات والقبلات بسيلٍ من الدهشة ودماء البكارة!!!

....

هاجرت تلك المرأة مع زوجها الى المدينة، بعد مرور عام شعرت أن هناك كائناً يتحرك بداخلها!

- أنا
- يا حلَّك!
- بس
- بسين
- والله حكاية!!

٢٥

مكامن الجمال في قريتي لا ترى إلا بتأمل شاق، زهرة سكبٍ يانعة بين الصخور الحادة، طائر (صليق) يصدح فوق شجرة سلم، رائحة التبن المحروق، نهيق الحمير المتراكبة، عجوزٌ تتناجى مع بقرتها، صوت ناشز لعيار طائش، وأجملها عندما يدخن جدي الغليون، رافعاً رجلاً فوق أخرى وإحدى خصيتيه تتدلى من فتحة سرواله القذر!!!

....

لكن رغم هذا الجمال التراكمي إلا أني اشتقت إلى (جدة)، اشتقت إلى أزقّتها الرطبة، الحواري المهملة، عرق الكادحين، تناقض الشمال والجنوب، باب مكة وباب شريف ومقاهي باب جديد المتهالكة، وحمص باب البنط، حتى برحة الجفالي اشتقت إليها وإلى الرؤوس المتساقطة والدماء المتدفقة والقيء المسكوب عن اليمين والشمائل رعباً، اشتقت إلى النبابيت المرفوعة و (النقرزان) وصوت ذياب المحمادي يلعلع في الأرجاء!!

....

اشتقت إلى شباب الحارة، حمودة وعلي صهيوني، فهد فلمبان، عبده هوساوي، أحمد زنوبه، فيصل العص، شلة أنس

وبهجة ومزمار وسهرات على الكيرم والضومنه وقهاوي ومقاشعات مع الحواري المجاورة!!

. . . .

ماما طليعة بيتها مفتوح لعابري السبيل والمقطوعين تسقي الغريب وتطعم المنقطع وتفلي رأسي بين ذلك!!

لا تغلق بابها بتاتاً قطعة قماش ساترة، وأولادها الذين أرضعتهم من ثديها الضخم يملأون الحارة حياة وشقاء.

حسن الصامطي يجلس على دكته كل عصر وبين يديه أوراق رطبة من القات يدعو السائرين لتناوله، منهم من يلبّي ومنهم من يدعو عليه!

. . . .

العانس شريفة الصومالية، تظهر لنا من نافذتها وتغنّي لنا أغاني (طاهر كتلوج) الفاحشة، والبشر في نظرها ذكران لوطيون ونساء سحاقيات!!

. . . .

أفراح الغامدي التي عاشت فترة من حياتها في ولاية (لاس فيجاس) ترفع صوت المسجل بأغانٍ غربية وتخرج إلى الشرفة ترقص رقصاً شرقياً وتتمايل كحيّة هندية لاشية فيها!!

. . . .

سميرة الحربي رغم بروز ثدييها تأتي من الحارة المجاورة لتلعب مع شباب الحارة (سبع حجر) وإذا فحمت تجلس وتردد أغنية!

. . . .

أبي يجلس بجوار العمدة يمارس دور الحكواتي، ويسرد قصص عنترة بن شداد وسيف بن ذي يزن، ويتلو أشعاراً وحكايات، وإذا مر

على قصص الغرام يضحك العمدة ويخرج (ليّ) الشيشة من فمه ويقول: قصة كمان قصة يا مغزول!!

الآن لم يبقَ الحال على ما كان، الحارة هاجر أكثر ساكنيها الى الشمال الإسمنتي وبركة الحارة بدأت تتقلص مع تقلص الكبار الذين بدأوا يتساقطون (كثمار مشمشة عجوز)!

والجيل الجديد أصبح ممسوخاً بلا هوية، يذاكر دروسه أولاً بأول ويضعون نظارات سميكة على أنوفهم ويلعبون الـ(سوني) في المساء، وفي نهاية الأسبوع يذهبون الى الكبائن للسباحة واللعب بالـ(جت سكي) وآخرون يستيقظون مبكراً مع الطيور ليجمعون العلب الفارغة من المزابل بحثاً عن لقمة العيش!

٢٦

بدأ جدي يهزل بشكل سريع مفجع، وبدأ نشاطه يتقلص شيئاً فشيئاً، لم تعد ضحكات جدي سراً، بل بدأ يضحك علانية وبنزق، ماذا طرأ عليه؟ لا أعلم بالضبط!

لم يعد يأكل منذ فترة طويلة، يدخن رغم تدهور صحته، لا أستطيع أن أذكر لجدي المراكز الصحية (الصوحيه) كما يقول لأنها حِجر على الأطفال والنساء وأشباه النساء كما يعتقد؟!

- ما هي إلا محلات للنفاس والتحاميل. .أخّوه وأنا أحمد. . !!

جدي يكابر، وأنا مارست معه الجلافة لكي يرضخ، ولكن جدي عنيد مصرٌّ على عناده.

بعد أيام من مرضه طلب مني أمراً غريباً لم يتجاوز بضع كلمات:

- خل أبواك وأعمامك يطلعون الديرة أبغيهم في عازه!

هذا الطلب الذي يحمل ألواناً من الريبة والشك دفعني لكي أذهب إلى منطقة بعيدة بالحرّاثة لكي أقوم بالاتصال على أحد أعمامي.

تدهورت حال جدي في غضون أسبوع ولم يحضر أبي ولا أعمامي، ثم هاتفتهم مرة أخرى وأخبرتهم أن جدي يحتضر وربما يموت قبل أن يحضروا!

عندما رجعت من تلك المنطقة البعيدة وجدت جدي يتمتم بكلمات غامضة، ويشير بإصبعه، بدأت أهمس في أذنه وهو يضغط على يدي بشدة ويشير بسبابته، بدأ (حميران) يصيح على غير عادته!

(حميران) يصيح
وجدي يشد على يدي
يشد
ويصيح الديك
وجدي يرفع سبابته
يشد على يدي يشد ويشد
ويرفع صدره قليلاً ثم يرتخي
ويسكن
وتبقى أصابعي الأربعة بداخل كفه
ويتوقف حميران عن الصياح
ويسكن جدي
جدي ممدودٌ أمامي كأنه سنبلة صفراء محروقة!
ثم
سكوون
يملأ المكان!!!

٢٧

في ذلك المساء لم يعد (مروان) بالغنم، ولم يحضر أحد من جدة ولم أستطع أن أدع جدي بتلك الصورة لذا قررت في تلك الليلة الهادئة حد الموت، أن أغسل جدي أن أجهزه لأن أعمامي الحقيرين لا يستحقون شرف غسله!

سمعت جلبة أحدهم نظرت إلى الأسفل فإذا أحمد يحمل سطلاً من ماء وبيده صرة بيضاء مصفرة، عندما دخل قبّل جدي على جبهته ثم وضع بعض أوراق السدر في السطل وبدأ يخلطه ثم ذهب إلى جدي المسجى وبدأ يجرّده من ملابسه ثم حمله بين يديه كان عظاماً مكسوة بالجلد، وضعه على (الصلاه) التي كان يصلي عليها، نظيفاً لم يكن في إبطيه شعر، لأنه كان حريصاً على نتفه على الدوام، أما العانة فقد كانت مسلوخة، وكأنها توقيع لعادة بشعة مندثرة!!

بدأ أحمد يفرك جسد جدي بالسدر وأنا أدر عليه من القربة ثم غسل أعضاء الوضوء ثم سكبت الماء على بدنه كله، ثم نشفته ودهنته بعنبر وكفناه وأدرجناه في ثلاث قطع بيضاء كانت تحت وسادته التي ينام عليها!

ثم قال لي أحمد:

- نصلي عليه بعد صلاة الصبح بإذن الله.

- ننتظر الجماعة يجون من جدة. . .

لم يرد عليّ وذهب وتركني وحيداً مع شخص ميت!

أن تجلس في خلوة مع جسد خالٍ من الروح أمر مرعب للغاية، وأن تقضي ليلة والأجواء تفوح برائحة السدر والعنبر المنبعث من جثة هامدة أمامك، والأرض رطبة من أثر ماء مستعمل في غسل بشرٍ منطفئ هذا بلا شك نوع من الطقوس الأخروية التي كادت أن تذهب عقلي!!

قبل الفجر حملنا جدي ووضعناه في حوض (الونيت)، وسرنا إلى مسجد القرية، عندما خرج العم بخيت المؤذن ورأى المشهد استعان برجل آخر، حملنا النعش ووضعناه عليه وفي زاوية من زوايا المسجد وضعناه، وبالتحديد الزاوية التي كان جدي يجلس فيها بعد أن تنتهي صلاة الجمعة ويردد أخباره وقصائده.

صلينا الفجر ثم اجتمع عليه رجال القرية ورفعوه عالياً فوق الرؤوس ثم قدموا الجنازة وكبر الإمام. . . . .

. . . . .

حُمل جدي فوق الأعناق إلى حيث يرقد آباؤه وأجداده القدامى وسرنا قاصدين المقبرة، لم يصل بعد أبي وإخوانه وأرسلنا أحدهم ينتظرهم عند مدخل الوادي لكي يخبرنا بمقدم المتخلفين، انشغلت أنا بتسوية القبر وتوسعة اللحد، بعد قرابة ساعة سمعنا عياراً نارياً يعلمنا بمقدم أبناء الميت.

- شاهت الوجوه - أتوا والبعض ربما على مضض خاصة أبناء العمومة، عمي علي كان أرق الجميع وأكثرهم حزناً نزل

القبر وأدخله اللحد، أحمد وضع (الصليّ) على اللحد وأخذ يسد الشقوق بالطين.

التراب ينهال، وكأن جدي لم يسر في تلك الديار، ينهال التراب وبعض أبناء العمومة يضعون أشمغتهم على أنوفهم القذرة خوفاً من الغبار!

....

(مروان) ينظر من فوق إلينا ونحن ندفن صاحبه يدور على نفسه ويصدر من جوفه أنيناً مؤلماً!

٢٨

العزاء ثلاثة أيام سوداء ثقيلة مللت فيها من شره المعزين الذين يلتهمون كل شيء!

انقشعت تلك الأيام وبدأت تظهر الأطماع في لحن القول وبعد لم يجف قبر جدي!

خالي سالم أخذ (يدركن) بعض أملاك جدي فنشبت الخصومة بعد ذلك بين أبي وخالي وعلى إثرها اجتمعت القبيلة لحل النزاع، بعد سجالات ومهاترات ومراء شديد قرر أعيان القبيلة أنه لا يحق لخالي العبث بأرض الغير أو تغيير منارها إن كانت حقاً مشاعاً، وعدم إدخال أي آلية أو (شيول) إلا بإذن شيخ القبيلة، ورضي الجميع بهذا الحكم وانتهت بذلك الخصومة.

في اليوم التالي مباشرة رجع خالي إلى سيرته الأولى وبدأ يعبث!

لم أكن أعلم أن الشر قد حل في ذلك الوادي السحيق، فعندما رأى أبي غطرسة خالي وعنجهيته توشح (جنبيته المالكية)، لم أتوقع أن يكون ذلك اليوم دموياً، أبي لم يصبر على الإهانة وخالي امتطاه ماردٌ لعين!

التقى الاثنان يدفعهما حقدٌ قد طفح ولم يعد يطيق البقاء وكانت تلك المعركة بالسلاح الأبيض وأشياء أخر!

كان مشهداً من العصور الوسطى وبدأت الشياطين تقرع الطبول وأشهر كل واحدٍ منهما صفيحته البيضاء التي بدأت تلمع مع أشعة شمس الضحى وكانت المعركة التي لم يشهدها أحد غير مخلوقات الشر، ثم ثار النقع لدقائق وأسدل الستار بطلقة نارية ختمت الصراع وأيقظت الغافلين!!

علم الجميع أن هناك شغباً، أنا كنت أملأ الحنفية من البئر، عندما سمعت صوت الرصاصة لم تلفت انتباهي ولكن عندما رأيت أحمد يركض حافياً ورأيت الغبار متصاعداً من سرعة (ونيت) عمي علي ومتجهاً إلى الأسفل بسرعة جنونية علمت أن هناك حدثاً مهولاً قد وقع!!

عندها تركت ما في يدي وركضت إلى أرض الحدث، كانت الدماء تملأ المكان، الخصمان مضرجان بدمائهما!

وضعناهما في حوض الـ (ونيت)، أبي فاقدٌ وعيه من كثرة الدماء التي قد نزفت منه لم أكن أعرف مواطن الطعن جيداً ولكن إصبعين من كفه مبتوران وضربة غائرة في العاتق بشكل مفجع!

خالي كانت الدماء تسيل من رأسه وهناك ضربه على حاجبه الأيمن وطلقة قد اخترقت صدره!

يكاد أحمد يقلع بالـ(ونيت) وعمي علي ينظر برعب إلى حوض السيارة، الطريق الوعر كنا نقطعه دائماً في ٤٥ دقيقة ولكن ذلك الزمن في ذلك الحين قد يسلب أرواحاً!

وكان في انتظارنا بعد ذلك ٣٠ كيلومتراً من الإسفلت حتى نبلغ المستشفى المركزي، خنقتني رائحة الدم، قلبي يخفق من هذه المصيبة التي لم نعتد عليها بعد!

وصلنا إلى المستشفى في وقت قياسي.

نقلوهما إلى الطوارئ، ثم تداعت بعد ذلك الأحداث، أخي الصغير منسي في جدة يقسم أمام جدتي لأمي أنه سوف يسافر إلى الديرة وسوف يذهب الى المستشفى وينحر خالي على سريره وجدتي تبكي وتتمنى الموت!

أولاد خالي تصلهم أخبار نتنة أننا اجتمعنا عصبة مع أبي وضربنا أباهم، وإشاعات عن مقتل خالي وأخرى عن مقتل أبي!

عندما تداعت هذه الأمور الى هذا الحد قرر مدير مركز الشرطة أن يحبس الجميع على ذمة التحقيق- وكان قراراً حكيماً منه -!!

بعد أسبوع خرجنا بعد أن هدأت الحادثة وانطفأت نيران الفتنة!

. . . .

أبي فقد إصبعين من يده اليسرى وكان به جرحان عميقان بسبب (الجنبية) وبعض الجروح السطحية، أما خالي فكانت به بعض الضربات والطعنات ولكن أخطرها الرصاصة التي اخترقت رئته اليمنى مما استدعى ذلك عملية جراحية خطيرة استمرت ساعات طويلة وتكللت بالنجاح.

بعد انتهاء فترة النقاهة في المستشفى كان السجن بانتظارهما تحقيقاً للعدالة.

كانت هذه الحادثة كفيلة بأن ترجع المياه إلى مجاريها وبدأت عائلتنا في مناقشة أوضاعها من جديد بعد هذا الحادث المأساوي.

الآن عندما ينزع أبي ملابسه أضرب له تحية عسكرية لكثرة الأوسمة التي على جسده، فهناك وسام العسكرية ووسام الرعي ووسام الجوع وأخيراً وسام الأرض!!!

٢٩

هذه هي القبيلة تعبد الحسد، وتشهد بذلك الحكايات والأساطير، ومنها أسطورة رمادان التي حكاها لي جدي رحمه الله.

يحكى أن شيخاً مات وخلف مكانة في قبيلته ومالاً ولم يخلِّف إلا ابنين كليباً ورمادان.

بعد موت الشيخ أحس رمادان أن القبيلة تتربص بهما لتظفر بالإرث والمكانة فقال لأخيه:

- القبيلة تتربص بنا ولابد أن يكون أحدنا مجنوناً حتى ينتقم لو حدث شيء.

رفض كليب إلا العقل، ورضي رمادان بالجنون وأقسم لأخيه إنه إذا قُتل فسوف يقتل مئة من قبيلته ثأراً له.

مرت الأيام ومارس رمادان جنونه وأصبح يجلس مع الأطفال والنساء ويذر الروث والرماد على رأسه لهذا لقب برمادان.

قُتل كليب واستولت القبيلة على كل شيء.

وفي يومٍ من الأيام ذهب رمادان إلى إحدى المزارع ودفن سيفه تحت شجرة وسلح على النصاب وربط فرساً بالشجرة، ثم ذهب إلى القبيلة وكانت مجتمعة وطلب من الشيخ أن تجتمع القبيلة في المزرعة

تحت الشجرة لكي تتناقش في أمر دية أخيه، وفعلاً اجتمعوا في نفس المكان الذي أراده رمادان.

قال له الشيخ:

- ما هي الدية التي تطلبها يا رمادان؟

قال:

- مُدٌّ من الغيم ومُدٌّ من القِذَّان - حشرة صغيرة جداً - وأريد الصحن المشتوف - القمر-.

ضحك عليه القوم، ولكن الشيخ أحس بالمكيدة فقال:

علومٌ يضحك الجهال منها ويبكي من عواقبها اللبيب

وبينما هم يضحكون سل رمادان سيفه من تحت الشجرة وامتطى فرسه وأخذ يُطيِّر الرؤوس من مكانها فقتل منهم تسعة وتسعين رجلاً، ولكن أحدهم رماه بمروة في رأسه فقتله.

ثم إنهم بعد ذلك صلبوه في الشجرة فأكلته السباع والطيور، وبعد زمن سقطت جمجمته على الأرض فوجدها أحدهم فلعنه وركل الجمجمة ودخلت عظمة في قدمه فأصابته الآكلة فمات فكان تمام المئة!

٣٠

جدي رحمه الله خلَّف وراءه ملكاً عظيماً، بيتاً حجرياً وماعزاً ودجاجات والديك (حميران) وبعض خلايا النحل، وأشياء أخر تتعلق بالحرث، وخلف أيضاً شيئاً مهماً لا ينبغي أن أنساه مروان!

بعد موت جدي حاول أبي أن يقنعني بأن أعود إلى (جدة) ولكني قررت المكوث إلى مدة ترضي حاجة في نفسي!

لم أجد مسوغاً للرحيل إلا الجامعة فقط، رغم أني قد تأخرت عن أندادي بأعوام!

. . . .

تغيرت كثير من الأمور بعد موت جدي، أحمد وجد وظيفة في الشمال على الحدود، عسكري برتبة جندي تشبث بها رغم بُعد المنطقة.

جدتي حليمة نطحتها بقرتها الحنون وكسرت ضلعين من أضلاعها فأخذها ابنها وانتقل بها إلى المدينة وباع البقرة في سوق (الخميس) وأقسم إنه لن يُرجع والدته العجوز إلى تلك الديار اللعينة وإن بكت دماً!!

(شلة الأنس) تقلصت لقاءاتهم، وندر سمرهم بعد أن وجد سعيد وظيفة بإدارة تعليم المنطقة، أما محسن الضاري فقد وجدوه مقتولاً بعد أن فقده أهله ثلاثة أسابيع؛ والسبب أن هناك من كان يتربص به بعد أن قبض (ضمانه)، (حسناء العقلة) داهم السرطان الخبيث صدرها فلم تعد تخرج إلا نادراً، ويقال إن (عيسى الجعيره) قد أصابها بعينه الحولاء فما لبثت أن سقطت ونقلت إلى المستشفى المركزي وهناك صعقت عندما سمعت الخبر!!

رزق الله الأعمى هو من بقي على عهده سمرنا وسهرنا كثيراً ثم انتهت كل الأحاديث وبقي العود هو من يتحدث.

أخذ رزق الله (يدوزن) عوده ثم بدأ في الغناء على طَرْق زهران وأنا أردد معه:

آنحن زهران يوم جتنا الدول ما تحرينا العدود
كل فارس تسوقه شيمته للبنادق والرصاص
يوم جانا (أحمد الباشا) و (حيدر) و (أبونابين) يابه
يطلبون الهوا والحل في دورنا وديارنا
قلنا يابى عليها الله وهيبات زهران العناصي
والتقينا بهم في (رهوة البر) و (قوب) و (عالقه)
بدينا عليهم بالنوافع وشدات المعابر
انجل الدم وصبح الخيل راحت بغير عقولها
والطوابير زاعة ما لحقناهم إلا وسط غامد
وهبينا لهم جولات منها يشيب المرضعين

يوم رفت بيارقنا وبيض الخناجر والحدايل
كنها بُرق المصياف جوف الوكون المردفات
ما نربي ولدنا حوب لعب البكم والتلفزيونه
إلا يتقدم المطرح ولا نصب البورق رماه!

- إلا يتقدم المطرح ولا نصب البورق رماه!(*)
طرق زهران، ذلك اللحن عندما يكون معزوفاً على العود تصبح الأرض مخضّرة بجمال الهوية، تشعر أن الأرض ترقص وتغني، طرق زهران على العود موسيقى تصويرية، تسكب على المكان ألواناً من بهجة، تزرع أملاً أنك موجود على أرضٍ لها تاريخ وهموم وحكايات!

(*) قصيدة لسعيد المقري رحمه الله يروي فيها أحداث معركة وقعت عام ١٣٢١هـ بين الأتراك و زهران.
(ما تحرينا العدود) لا نستعد للحرب. (أحمد الباشا) و (حيدر) و (أبو نابين) قادة أتراك قتلوا في المعارك. (العناصي) المتمردين. (رهوة البر) و (قوب) و (عالقه) أماكن المعارك. (النوافع) جمع نافعي وهي الجنبية، سلاح أبيض مشهور. (شدات المعابر) رصاص البنادق. (زاعة) هاربة. (الحدايل) دخان البارود. (جوف الوكون المردفات) في جوف الغيوم المترادفة. (البكم) البك آب صندوق أسطوانات الأغاني. (المطرح) مقدمة الجيش. (ولا نصب البورق رماه) إذا انتصبت بيرق العدو رماه ببندقيته.

٣١

- يا للهول. . .نصبت أعمدة الكهرباء بالقرية!!

نطقت بهذه الجملة عندما استيقظت يوماً ووجدت أن شركة الكهرباء قد ركزت أعمدتها بالقرية.

من أمر الشيطان بأن يركز أعمدته هنا!

أصبح المكان مشوهاً بأعمدة متفرقة هنا وهناك، بعضها في الوادي، وبعضها على أصول الجبال، إنها نواقيس حرب وطمس هوية، العمود الذي أمام منزل جدي سكبت عليه وقوداً وقمت بحرقه، كنت أنظر إلى الأعمدة الأخرى وكأنها أصنام عارية!!

. . . . .

خلعت ملابسي وسرت عارياً حافياً إلى الغدير، غضبي وتوتري لن يطفئهما إلا الغدير، لن يخترق أسفي إلا صقيع الجبل، سرت على الصخور الباردة وأنا ألعن الكهرباء ومن أمر شركة الكهرباء بغرس أعمدة الشيطان ونسمات خفيفة تداعب جسدي وشعث مخبئ صعدت الجبل وتوقفت عند (عدنه) راوية يكاد أن يسيل الماء من جذعها حضنتها وشممتها وداعبتها حتى توتر عضوي وسال الدمع والماء على جذعها كنت أعاشر الطبيعة في صمت عميق، كان وداعاً استثنائياً!!

ومن العلو قفزت مغمض العينين إلى الغدير وبين قفزتي وارتطامي بسطح الماء جرت الأحداث سريعاً تذكرت أشياء كثيرة، خروجي من جدة، معاناة الرعي، موت جدي، مبارزة أبي وخالي، أثداء حسناء المتسرطنة، كرش محسن الضاري المبقورة، أعمدة الكهرباء المنصوبة، ثم غمرتني مياه الغدير الباردة!

كان غسلاً أعظم من أي غسل لم أدعك جسدي ولا شعري وإنما غسلت أموراً كانت بداخلي لم أصبر عليها وضعت رأسي على إحدى الصخور ونمت بعمق لم أشعر إلا بنباح (مروان) عندما أتى بالغنم من الجبل ليشرب، أخذ ينبح، فهو لا يريد أن يفقدني بعد أن فقد صاحبه!!

خرجت من الماء وجلست على صخرة لينشف جسدي.

سرت مع القطيع شارد الذهن، عندما وصلت إلى البيت جهزت متاعي لكي أرحل!

في المساء جاءني رزق الله على غير عادته، كنت أفرط الجراك وأنقيه من حبات الهيل والتمر الهندي لتحضير (شيشة) المساء!

قفزت مرحباً:

- حياكم الله.. الله يحييكم...
- الله يسلمك..
- الله يحيّي من جا..
- الله يبقيك...
- وانا فدى من جا... هلا وسهلا..

- كان يا شيطان!!

غسلت يدي من أثر (الجراك) ثم صافحته وأخذ يتحسس ذراعي ورأسي وخدي..

- خير يارزق...
- أنت بخير..؟!!
- الحمد لله وش رأيك؟
- بعافية.. بس واحد من الجماعه شافك اليوم عاري قلت أشوف وش الهرجه؟!!
- الكلب. ليش ما يكسر بصره؟!
- يكسر بصره وانت زُلُط مُلُط.
- الله يعميه
- ومن قال
- أنت خرعت؟
- قلت يمكن صار شي والا شي وانت كما بقعاء لحالك هنيه!
- تعال أجلس... والله.. ما في إلا العافيه..

وضعت جمراً على رأس (الشيشة)، وكانت ليلة وداع هادئة؛ نجومٌ منثورة وبدرٌ باش يعكر صفو ذلك قرقرة الشيشة العدنية والضحكات سوقية!!

- رائع اجتماع السواد يارزق؟
- أي سواد تقصد؟
- سواد الليل وسواد الجبل وسوادك
- وسواد طيزك يا كلب!

ضحكاتنا تزعج من هم في الجهة الأخرى من القرية ولكنهم لا يجرؤون أن يقتربوا خوفاً من الجن!

.....

لا أدري لماذا بعد الحكايات الجميلة دائماً تأتي المعاناة؟!!

- زهران
- قل
- أبغى ولد؟
- قررت تتزوج؟
- يعني
- حددت؟
- يعني
- يعني خضوع؟
- يعني... خضوع لأعيش!
- كل خضوع من أجل العيش... ولكن خضوع عن خضوع يفرق..
- احتاج ذرية أبصر بها العالم يا زهران...
- من حقك. وأحس هاذي المرة أنك موفق.
- إن شاء الله.
- وانا زيك.. قررت أن أخضع؟
- خير؟
- أن أرجع الشام (الشمال).
- ليه؟
- ما سمعت عن أعمدة الكهرباء المنصوبة؟
- أعمدة الكهرب؟

- ....

- أعمدة الكهرب تخليك تمشي وانت عاري

- اااه يارزق.... سيبعثون من جديد يا رزق سيبعثون.. ستبدأ معارك وأحقاد وأطماع سوف (يتطاول الحفاة العراة العالة رعاء الشاة في البنيان)... سوف تتغير المعالم وتتفشى الأمراض البشرية سوف تهدم بيوتات الحجر والبلاد ستدك وتسوى بالأرض وستشيد محلات ومراكز تجارية سيرمون الخبزة السمراء ويأتون بالـ (تُست) الأبيض و (الكروسان) الفرنسي وسيعافون اللحم ويأتون بمزارع الدجاج...

- فال الله ولا فالك يا رجل

- صدقني يارزق هذا ما سيحدث..سيغادر النحل ويأتي الذباب من كل مكان.. صدقني وسترى عينات من البشر غريبة حد الجنون، لن تراهم فأنت أعمى قذر في نظرهم سيراهم ابنك وسيحدثك بذلك وسوف تتذكر كلامي..

- شوف لا تتفسوى زي حقين الإذاعة!!

- ....

- متى بتسافر؟

- بكره

- والحلال؟

- له أهله

- تتركه؟

- لا. أعمامي يتولونه.

- .....

- .....

- الله . . الله . . بتنسانا
- أكيد
- رمه
- يعني تبغاني كل ليلة أجلس قدام هذا الوجه
- أصلك كلب و . . .
- مروان

مروان عندما سمع اسمه ظل ينبح وينبح والشيشة تقرقر والليل يثرثر!

٣٢

مروان يعدو خلف السيارة التي أقلتني من (مثلث الحجرة)، قطع مسافة طويلة وهو يعدو حتى إذا تعب وقف ونكّس رأسه وأخذ يدور حول نفسه.

السائق رجل في منتصف العمر أصلع، شماغه على كتفه، تارة يتمخط بها وتارة يمسح بها عرقه، يدخن سجائر من نوع (أبو بس) عندما صعدت سألني عن اسمي وقبيلتي كما هو المتعارف عليه دائماً، جاوبته باختصار، كنت أرغب أن أتأمل الرحلة في صمت ولكن السائق يرغب بخلاف ذلك!

- اعطنا قصيدة
- ما احفظ شي يا عم
- الله. . . الله يا زمان كان جيل أول جيل متواضع وقلوبهم نظيفة!

سنين طويلة لم أسلك ذلك الطريق، لم يتغير كثيراً، الجبال كما هي تخلو من أي دليل على الحياة، الأرض الجافة تريد المطر، لكن البشر يُنفِّرون الغيم!

السائق يدندن بقصائده، وينظر إليّ، يريد مني أني أفتح باباً للحديث، ولكن طقوس العودة ألجمتني!

- تعرف هذا المكان؟
- لا
- هذا اسمه أم نحيين
- إيه يعني نحيين؟
- النحي القربة، أم نحيين يعني أم القربتين.
- تعرف قصة أم نحيين؟
- لا والله وش قصتها؟
- كان في هذه المنطقة سوق مشهور، وكانت في حرمه مليحة تبيع السمن والعسل في قرب، جاء عندها رجال وقال: أعطيني أجرب سمنك وعسلك قالت: أبشر، الحرمه رفعت نحي السمن في يد والعسل في اليد الثانية، الرجال قام رفع ثوب الحرمه ومسّها وسط السوق!!
- اغتصبها علني؟!!
- مَرَشَها على الهوا مباشرة
- ول!
- اجتمعت قبيلة الحرمه وقبيلة الرجال وصارت موقعة شهيرة ما سلم أحد من القبيلتين، كلهم تذابحوا!
- وسموا المكان أم نحيين!
- هذا الكلام قديم، يرويه الأصاغر عن الأكابر
- ....

- ....

- مرررره قلوبهم نظيفة!!!

داهمتنا في الطريق عواصف رملية شديدة حتى أصبحت الرؤيا شبه معدومة.

السائق معتاد على مثل هذه الأجواء، السيارة أصبحت فرناً لا يحتمل والعرق يسيل دون توقف ويستحيل في مثل تلك الظروف أن تفتح زجاج السيارة.

......

بعد ساعتين توقفنا عند إحدى المحطات.

الغبار يملأ المكان والبشر متلثمون بأشمغة، العمال يرفضون العمل، يتوقف كل شيء تقريباً إلا بعض الشاحنات الضخمة المترعة بالديزل فهي تشق طريقها دون خوف العواصف، السيارة التي تقلني زال طلاؤها وسحلت واجهتها تماماً!

في آخر الليل هدأت العاصفة الرملية وركبنا السيارة، صاحبي مستاء مما حل بسيارته.

سرنا، الظلام طاغٍ حد الصراخ، أنوار السيارات العالية سبب تافه للعنة الآخرين وذلك خوفاً من الوقوع في أحضان إحدى الشاحنات القادمة من الشمال.

الجمال السائبة تداهمنا في الطريق، السائق أصبح محترفاً لدرجة أنه ينافس سائق سيارة فورمولا!

في الطريق صادفتنا سيارة من نوع (جي أم سي) مقلوبة للتو، نزل صاحبي يتفقد العائلة، لم أنزل كنت مصدوماً من المنظر، غاب

رفيقي، نزلت من السيارة، اقتربت من السيارة المقلوبة، لا أسمع سوى أنين خافت، وصراخ طفل محشور بين ركام الحديد واللحم!

كانت رائحة الوقود تحذرنا من حدوث شيء!

صاحبي أراد أن يُخرج الطفل فلم يستطع لبدانته، تغلبت على خوفي ودخلت، كانت أمه قد حوته، كانت صَدَفةً لذلك الرخو الذي بين يديها، نزعته ببطء، أحاول أن أحميه، أن أحتويه، لكن هيهات أن يكون احتوائي كاحتواء الأمهات.

رفيقي السائق تناول الطفل وبدأ يبكي معه، بعد ساعة ونصف أتى الإسعاف!

ناولتهم الطفل، ثم أكملنا طريقنا.

ما أطول الطريق القصير مع الصمت، فكيف بطريق مثل الساحل!

رفيقي صامت منذ أن تركنا الحادث خلفنا.

الصمت مأوى المصدومين بقسوة، المصدوم بعنف لا يبكي، فقط يصمت، لأن البكاء يصبح مبتذلاً حينها!

نطق!

ثم أخبرني أنه رأى الكثير من الحوادث، ولكنه يتأثر كثيراً من رؤية الأطفال الموتى يتماً وحياة!

ذكر مرة أنه وقع حادث لباص معلمات في ذلك الطريق، أحدهم تقدم إلى امرأة ميتة قد تكشفت، دفعته شيمته ليسترها بشماغه، فسقط بجوارها ينتحب لأنها كانت ابنته!

....

رفيقي أخذ يثرثر ويسرد أحداثاً مروعة، كان ينظر في الطريق

الذي أمامه دون أن يرمش، كان متصلباً على المقود، فقط لسانه الذي كان يهدر ويهدر.

بعد أن لعن الحكومة والمسؤولين، مسح الزبد من شدقيه ثم بدأ يترنم بقصيدة بينه وبين نفسه!

وصلنا إلى (قهوة الجبل) بعد أن نشفت خوفاً، تركنا طريق الساحل خلفنا يكمل فصول المسرحية الدموية!

مكثنا وقتاً في القهوة، لم أكن متحمساً لجدة كثيراً، شربنا الشاي والشيشة ثم أكملنا الطريق.

من بعيد كنت أرى جدة، هالة النور تغطيها، أدخلها فارغاً من كل شعور!

تلك الأعوام التي قضيتها في الجنوب لم أرجع منها بشيء إلا بخفافٍ يابسة ومتشققة وأظافر منزوعة، وندوب في جميع الجسد، لكل ندبه قصة!

رجعت بوجهٍ كحرف سكينٍ صدئة، شفاه غليظة، لثة سوداء من التدخين وأسنان صفراء مقرفة، شعري الطويل لازالت به (قطبة الأمس، ولحيتي يتخللها خيبات دون كيخوته، وذاكرتي مثقوبة!

(كوبري المينا) لسان طويل يمتد فوق أحياء جدة المنسية، غليل والقريات والثعالبة، جسر يبصق في كل حين سيارة ثمل، أو منتحر قادم من الأحياء الفقيرة التي تقبع تحته!

(النزله) يعاشرها الليل بهدوء، أعمدتها منتصبة، وبرجها ثديٌ ضخم حلمته تروي السواد ولا تهتم بالنجوم الصغيرة التائهة، ترضع

مسابح الأثرياء وترش حدائقهم وتبخل بقطرات على البراميل الزرقاء المركونة في حمامات الفقراء!

أوصلني رفيقي الى باب بيتنا أخرجت نقوداً، (فطلّق) أنه لن يأخذ هللة واحدة، أخرجت متاعي الرث من شنطة سيارته المنهكة، ذهب ملوحاً بيده السمراء حاشراً بين إصبعيه سجارة.

....

كان الوقت متأخراً جداً، لم أطرق الباب، رميت متاعي في (حوش) منزلنا، عندما رقيت السور، التفت إلى نافذتها، كانت مضاءة!

تمت

جدة

٩ مارس ٢٠٠٨م

المؤلف:

- طاهر أحمد الزهراني
- وُلِد في مدينة جدة عام ١٩٧٨م
- خريج كلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة الملك عبدالعزيز بجدة

صدر له:

- إيفه (رواية)، دار المحمدي، جدة ٢٠٠٤م
- الصراع الدامي (رواية)، دار المحمدي، جدة ٢٠٠٥م
- جانجي (رواية)، رياض الريس للكتب والنشر، بيروت ٢٠٠٧م

الموقع الشخصي : www.6aher.com

taher-z@hotmail.com



هذا الكتاب

طريق الساحل المؤدي إلى الجنوب لا يشي أبداً بأن هناك فرقاً بين الفريقين ليذهب السائرون فيه إلى الجحيم، طريق الساحل ثعبانٌ طويل في كل شبر منه نابٌ سامٌ يتقرب، طريق الساحل لعنة من لعنات الله على الأرض خطٌ واحدٌ يلتهم الناس بشبق، طريق الساحل نعش أسود وعواصفه نائحة ثكلى تزعجنا دوماً، وجيب أبي «السوزوكي» يشق الطريق إلى وادٍ في تهامة أغبر ملعون.

في هذا الطريق لا بدّ أن تستفرغ (مرة أو مرتين) والسائرون فيه (لا يتوبون ولا هم يذكرون)!

دماءٌ دافئة على الإسفلت، مخٌ متناثر، فروة شعرٍ مدعوسة، امرأة ميتة شبه عارية ملطخة بالدماء . .

الطريق شمس حارقة ودماء سوداء يابسة وجمال سائبة وحمير تدور يوماً كاملاً ليخرج لترين من زيت السمسم، ورمال «صفراء فاقع لونها لا تسر الناظرين»!، سيارات من طرازٍ قديمٍ على قارعة الطريق، رعاة جففتهم شمس الجنوب وهموم تحت خيام «الخباتيه»!

